مجلة منتدى التوحيد

العدد الثالث

مجلة دورية شهرية تصدر عن منتدى التوحيد

# فطرة الله التي فطر الناس عليها

بقلم د. حسام الدين عامر


- الداروينية غير ممكنة من منظور فيزيائي بقلم د ساهر
- العلمانية وثقافة السلام بقلم د. أحمد إدريس الطعان
- وراء كل ملحد حكاية .. د. السرداب


WWW.ELTWHED.COM

مجلة منتدى التوحيد
مجلة دورية تصدر كل شهر

تأسست عام
١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م

تصدر عن موقع
منتدى التوحيد
www.eltwhed.com

العدد الثالث
صفر ١٤٣٠ هـ

المراجعة اللغوية
مراقب ٢
muslimah
قرآن الفجر

المراسلات
altwhed_com@yahoo.com

| | |
|---|---|
| مقدمة العدد | ٣ |
| قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ | ٦ |
| الداروينيةُ غيرُ ممكنةٍ من منظورٍ فيزيائي | ١٠ |
| العلمانية وثقافة السلام | ١٦ |
| الفيزياء ووجود الخالق | ٢٠ |
| مشاعرها والأمومة.. ومكانتها في الإسلام | ٢٥ |
| حوار موحد وملحد | ٣٥ |
| فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا | ٣٩ |
| وراءَ كل ملحدٍ حكاية | ٥٠ |
| الفيزياء الحديثة ومذهب السفسطة | ٥٥ |
| الأدلةُ القرآنيةُ على حجيةِ السنةِ النبوية | ٥٩ |
| لطائف وطرائف | ٦٧ |
| إنما النصر مع الصبر | ٦٩ |

# مُقَدِّمَةُ العَدَدِ

يذكر ابنُ خلدونٍ حقيقةً تاريخيةً اجتماعيةً في دراسة الحضارات والدولِ حين يُشَبهَها بحياة الشاب القوي أولَّ أمرِها، ثم بالكهولةِ حين تَضعفُ شيئا قليلا وتبدأُ مظاهرُ الدَّعةِ والمُلك المترفِ تتسربُ إليها شيئا فشيئا، ثم تنحدرُ إلى الشيخوخةِ عندما يكون همُّ قادتِها منصرفًا عن تحصين الدولةِ ورعايةِ الناس إلى الانغماسِ في الشهوات والاقتتالِ على الملذات، إنها أطوارٌ ثلاثةٌ تشهدُها كلُّ دولة، فتستمدُّ قُوَّتَها من قادتِها أولَ أمرِها، ثم تموتُ على أيديهِم آخرَ الأمر، إلا أن الأمرَ ليس راجعًا إلى شخصيةِ القادةِ رجوعا مجردا، وإنما ما تلتزمُه هذه القياداتُ من المبادئِ والقيم، وما تهدفُ إليه من المقاصد وتبذلُه إليها من الوسائل.

وإذا تأملنا في تاريخنا الإسلامي لنبحثَ عن موقعِنا الآن من تاريخِنا، فسنجدُ أنفسَنا نمرُّ بمرحلةٍ متكررةٍ من الضعف تظهرُ بين عصرين من عصورِ الازدهار والقوة، حيث يحملُ الضعفُ مع آلامِه بشارةً بميلادٍ جديدٍ لجيلِ التجديد والعزة، وقد كان هذا الضعفُ قديما يُهيئُ للأمة الإسلاميةِ فرصةَ التخلصِ من الحكمِ الفاسدِ ويعطي الصالحينَ من أهل الحلِّ والعقدِ الحجةَ الشرعيةَ والقدرةَ القتاليةَ على إعادةِ الأمورِ إلى نصابِها وتجديدِ ثوبِ الخلافةِ بعد أن بَلِيَ وتخرَّقَ على أيدي المترفين.

إلا أنه يوجدُ فرقٌ جديدٌ في عصرنا هذا، وهو أن ضَعفَ الخلافةِ قديما كان لا يُزيلُ وجودَ الحكمِ الإسلاميِّ الواسع، وإنما يُشوهُ جمالَه، أما الآن فليس لدينا إلا دُويلاتٍ متفرقة، وإماراتٍ متنازعة، كما أنَ شأنَ الإصلاح لم يَعدْ مُتاحا للأمة دون تدخلِ أعدائِها الخارجينَ عنها، البعيدينَ منها، كما كان أولَ الأمر، فبمجردِ أن تنبعثَ حركةُ الإصلاحِ العامةِ داخلَ الأمةِ الآن فإنها ستكونُ معرضةً لمباغتةِ الأعداءِ لها في عُقرِ دارِها، دون أن تتركَ لها فرصةً للمبادرةِ والحياةِ كما يظنون.

وما فتئَ أعداءُ الإسلام في الداخل والخارج يسعَون في الأرضِ فسادا بعد أن خلا لهم الجو، وصار حِمى أرضِ الاسلام مستباحا حين عُزلتْ شريعتُه عن السيادة والحكم، وتكالبَ الأعداءُ على الأمة الإسلامية تكالُبَ الأَكَلَةِ على قَصعةِ الطعام، ينهبون الخيراتِ ويقتسمونها فيما بينَهم ثم يتركون القصعةَ خاليةً لأهلِها

ليس لهم إلا الجوعُ والذلُّ والخوف، مستغلين بذلك مرحلةَ الضعفِ التي نَمر بها، مع حرصِهم على استمراريتِها ووأدِ كلَّ أسبابِ القوةِ التي تُعيدُ للجسد الإسلامي قُوَّتَه وعافيتَه.

فجمعوا على ديارِ الإسلام أنواعا منوعةً من الحروبِ ووسائلِ القتالِ عسكريا وسياسيا واقتصاديا وتقنيا وفكريا، ولا يخفى على أحدٍ حربُهم الاقتصادية التي أُصيبت فيها بلادُ الإسلام بفاجعتين اقتصاديتين، الأولى سلْبُ ثرواتِها، والثانيةُ استهلاكُ منتجاتِ أعدائهم في أسواقِنا، فيأخذون ثرواتِنا دون مقابل، ثم يكلفوننا دفعَ قيمتِها مقابلَ سِلعٍ استهلاكيةٍ تُقويهم وتُضعفُنا.

وقد علموا بخبثِهم أن أفرى سلاحٍ لديهم هو سلاحُ الفكر، فإن بقيةَ أسلحتِهم تَصنعُ الكراهيةَ لهم وتَحضُّ على قتالِهم ومواجهتِهم بمثلِه، أما سلاحُ الفكرِ فإنه يُخدرُ العقول، ويُلغي الشعور، ويصنعُ الأوهامَ في الأذهان، فإذا العدوُّ يلبسُ ثوبَ الصديق، والباطلُ يتزينُ بزينةِ الحق، والمكرُ يُقَدَّمُ على طَبقِ النصيحة، والخيانةُ تتخفى خلف قِناعِ التعاون.

وإذا بشبابِ الأُمةِ الذين يُنتظرُ منهم أن يقوموا قومةَ صلاحِ الدينِ الأيوبي لنُصرةِ الإسلام واستردادِ الأقصى السليبِ إذا بهم يقعون ساجدينَ أمام دعارةِ الفكرِ المُنحل، ويسقطون صرعى أمام أخاديعِ الجدلِ الاستشراقي، ويستسلمون لثقافةِ الهزيمة، ويتعلقون بأوهامِ القوة كما يتعلقُ الأسيرُ بجلادِه، فيعطيه هالةً من التقديسِ والتعظيمِ بقدرِ ما يجدُه من ألمِ سَوطه على ظهره! رغم أنه بالِغُ الحقارةِ عند الشرفاء، ولكنها طبائعُ الضعفاءِ أمامَ الاستبداد.

إن هذا التحدي لا يعني الاستسلامَ لأعدائِنا والتخاذلَ أمامَهم، وإنما يعني أنه لا بد من حسابٍ دقيقٍ للأسبابِ الشرعيةِ والكونية التي ينبغي الأخذُ بها في سعيِنا لتحقيقِ العبوديةِ لله تعالى في الأرض، تلك العبوديةُ التي ينتجُ عنها التمكينُ والغلبةُ على الظالمين، وعُلوُّ الحقِّ وأنصارِه على الباطل وجنده.

فإذا كانت الحربُ على الإسلام تتخذ صورا متعددة، وتعتمدُ أسلحةً متنوعة، فإن مواجهتَها ينبغي أن لا تُغفِلَ جانبا منها دون إعدادِ القوة والرباط الذي نُرهبُ به أعداءَ الله، ولهذا ينبغي أن يُعلمَ أن القائمَ على كل ثغرٍ من هذه الثغورِ مجاهدٌ ومرابطٌ على صورةٍ من صورِ الجهادِ والرباط، وأن قيامَه على حياطةِ ذلك الثغرِ واجبٌ مُتَعينٌ عليه لقدرتِه عليه، وأنه مسؤولٌ عنه، فليحذرْ أن يؤتى الإسلام من قِبَلِه.

ولهذا ينبغي أن يكونَ هناك وعيٌ عامٌّ بأهميةِ دَورِ كلِّ فردٍ مصلحٍ في هذه الأمةِ فيما يقومُ به، فلا

يحقِرُ من المعروف شيئا، ولا يزهَدُ في دَورٍ إيجابيٍّ يمارسُه ما دام قادرا عليه والأمةُ بحاجةٍ إليه، وبهذا نعلمُ خطأَ من يطلبُ من جميع الأمةِ التوجهَ إلى عملٍ واحدٍ ودَورٍ واحدٍ تاركا مجموعَ الأدوارِ التي لا بد من تحقيقِ عبوديةِ الله فيها وامتثالِ شرعِ الله فيها، ومن ذلك مشكلةُ خلطِ الأدوارِ وعبثيةِ الجهودِ حين يَترُكُ كلُّ فردٍ موقعَه من الجهادِ ليتقدمَ إلى موضعِ واحدٍ يتزاحمُ عليه الجميعُ تاركين مواقعَهم مفتوحة من ورائِهم ومن جميعِ الجهاتِ الأخرى ليتسللَ منها أعداءُ الإسلامِ فيُحبطون هجمةَ المسلمينَ استغلالا لغفلتِهم عن بقيةِ الجبهاتِ التي تَحسمُ نتيجةَ المعركةِ لمن يستولي عليها.ولا نقصدُ بالجبهاتِ هنا مواقعَ أرضية، وإنما ما هو أعمُّ من ذلك فيشملُ مجالاتِ الجهادِ العامِّ وإعدادَ العدةِ الإيمانيةِ والفكريةِ والاقتصاديةِ والعسكريةِ وكلَّ ما يُحتاجُ إليه لقيامِ المجتمعِ الإسلاميِّ المتكاملِ حسبَ القدرةِ والطاقة.

ومن هذا المنطلقِ كان لا بدَّ أن ينفرَ طائفةٌ من هذه الأمةِ للتفقهِ في الدينِ والتبصرِ فيه ليُنذروا قومَهم ويَصدوا عاديةَ الحربِ الفكريةِ الثقافيةِ على الإسلام والمسلمين، فإن الغرَرَ باعتناقِ الأديانِ الوثنيةِ وضلالاتِ أهلِ الصليبِ وإخوانِ القردةِ والخنازيرِ يكادُ يكون معدوما، فإن العقولَ والفِطَرَ تأنفُ من الوثنيةِ وتناقضاتِ النصرانيةِ وعنصريةِ اليهودية، ولولا أن أكثرَ شبهاتِ هؤلاءِ في الطعن بالإسلام افتراءً عليه لما كان هناك حاجةً كبيرةً للردِّ عليهم كما هو الآن، بينما نجدُ أن التياراتِ الفكريةِ المعاديةِ للإسلامِ تَستغلُّ جهلَ كثيرٍ من المسلمين بدينِهم وعقيدتِهم فتجدُهم يُكثرون من طرح أفكارِهم الخاطئةِ في أمانٍ من وجودِ حصانةٍ إسلاميةٍ ومعرفيةٍ لدى صغارِ الناشئةِ وقليلي المعرفة، لا سيما إذا ظن بعضُ هؤلاءِ الصغارِ أنهم حصلوا جديدا من الفكرِ والثقافةِ التي لا يدرِكُ في الحقيقة منها إلا عباراتٍ جوفاءَ بدون تَحقُّقاتٍ صادقةٍ لها.

ولهذا كان واجبا علينا أن نوليَ الجهادَ الفكريَ حقَّه من الإعدادِ والعطاء، وأن تتكاتفَ جهودُ المخلصينَ القادرينَ على جهادِ الكلمةِ والفكرِ فلا يدخروا سعيا صالحا في سبيل إعلاءِ كلمةِ الحق، ووقايةِ ناشئةِ المسلمين من الوقوعِ في شباكِ المخادعينَ الذين يحاولون إبعادَهم عن سماعِ صوتِ الحق، ويستدرجونَهم إلى المواجهةِ بغير سلاح، فيصيرون صرعى لشُبهاتِهم الخاسرة، التي لو ووجهتْ بعلمِ المؤمنِ ومعرفتِه لتبينَ أنها سرابٌ لا حقيقةَ له، وهذا ما نرجو أن تُحققَه هذه الكتاباتِ النافعةِ التي تتوالى في مجلةِ منتدى التوحيدِ كتوالي الغيثِ على الأرضِ العطشى إلى رحمةِ الله تعالى، ونسألُ اللهَ أن ينفعَ بها كاتبِيها وناشرَها والقارئين في الدنيا والآخرة، إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

**لقد** جاء الإسلامُ غنيًّا ﴿ بتقريراتٍ وبياناتٍ عن الذات الإلهية وصفاتِها، ومسائلِ التوحيد والنبواتِ واليوم الآخر، الإنسانِ وبدءِ خلقه ومصيرِه وموقفِه من الكون، الأممِ السابقة ومواقفِهم من أنبيائهم، الماضي السحيقِ وتاريخِ الأمم، وعن حقائقِ عالم الغيب كالملائكة والجن، إلى غير ذلك من الموضوعات التي كانت –وستظل- مثارَ التساؤلِ والبحث في ميدان الفكر الإنساني ﴾[١]، وضُلَّالِ الفلاسفة ومن تأثر بهم يظنون أن الأدلةَ العقليةَ لهذه المسائلِ لا تأتي من غير عقولِهم، بينما ﴿ الأمرُ ما عليه السلف، أهلُ العلمِ والإيمان، من أن الله تعالى بيَّن من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلمِ بذلك، ما لا يقدرُ أحدٌ من هؤلاء قَدره، ونهايةُ ما يذكرونه جاء القرآنُ بخلاصتِه على أحسن وجه ﴾[٢].

وكأنك ستقول **"لا بدَّ من ذكر ما ورد بالكتاب والسنةِ لتقرير مسائلِ العقيدة وللبرهنة عليها ليكونَ المقالُ كاملًا صادقًا"**، لكني رأيت سبيلًا شرعيًّا أخصرَ من ذلك، وذلك باستعراض قواعدِ الحقِّ في مقابل عشوائيةِ الباطل، ما أيسره من سبيلٍ ! ودونك أيَّ كتابٍ من كتب الأصول، تناولْه وانظر في فهرستِه، فإن الفهرسةَ تكفيك ما أنت بصدده! ثم جُلْ فيه بنظرِك وبعد جولة قصيرةٍ ستكونُ على يقين من أمرِك ! ثم دونك أي مبطلٍ تتأملُ حالَه مع باطلِه لترى الفرق جليًّا والمقابلةَ متكاملة !

ها هو كتابُ **"إعلامُ الموقعينَ عن رب العالمين"** لابنِ القيمِ رحمه الله، أرى في فهرسته **"الردُّ إلى الله والرسولِ من موجبات الإيمان"**، وأجولُ فيه فأرى قولَه:

> ﴿ من تحاكمَ أو حاكمَ إلى غير ما جاء به الرسول، فقد حكّمَ الطاغوتَ وتحاكمَ إليه، والطاغوتُ كلُّ ما تجاوز به العبدُ حدَّه مِن معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع، فطاغوتُ كلِّ قومٍ من يتحاكمون إليه غيرَ الله ورسوله، أو يعبدونَه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرةٍ من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعةٌ لله، فهذه طواغيتُ العالم ﴾[٣].

ويومَ قرأتُ أن أحد الباباوات أذِن لأحد رعاياه أن يتزوجَ بامرأة ثانية[٤] عجبت !، وتساءلتُ عن الرضا بآدميٍّ يشرِّع، بل الرضا بآدمي يشرع خلافَ مرادِ الرب، فإني لا أرضى في ديني بشرعٍ لم تَثبُت ربانيتُه، ولا أرضى لنفسي أن أكون تبعًا لأهواء الرجال، وحمدت الله أن هداني فلم أكن عبدًا لسواه !

وهذا كتابُ "**الموافقاتُ في أصول الشريعة**" للشاطبي رحمه الله، تجدُ في فهرسته "**هذه الشريعةُ عربية، فعلى أسلوب العربِ تُفهم**"، ثم أجولُ فيه فأجدُ قولَه:

﴿ لا بد في فهم الشريعةِ من اتباعِ معهودِ الأُميين –وهم العربُ الذين نزل القرآن بلسانهم- فإن كان للعرب في فهمِها عُرفٌ مستمرٌّ فلا يصح العدولُ عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثَمَّ عُرفٌ فلا يصح أن يُجري في فهمِها على ما لا تعرفه، وهذا جارٍ في المعاني والألفاظ والأساليب ﴾[٥].

وأتمثلُ أمامي رأسًا من رؤوس الباطل، وهو يخدع الناس عن عقولهم، ويهتبلُ كلَّ غفلةٍ ليمررَ باطلَه، ثم يخرجُ عليه غلامٌ سائلًا عن تناقضٍ علّموه أن يعتقدَه، أو يستفهمَه عن معنىً قبيحٍ في نصٍّ لَقنوه أن يُقدسَه، فلا يجدُ المبطلُ مفرًا إلا اللجوءَ إلى غير مِلته الباطلةِ والتحررِ من كل قاعدةٍ ملزمة، فينسب لملتِه ما ليس منها أو ينفي عنها ما هو فيها، ويرهقُ نفسه تحريفًا وليًّا لأعناق الكلام !

ثم دونك كتاب "**شرحِ العقيدة الواسطية**" للشيخ ابن عثيمين رحمه الله، أرى في فهرسته "**أهلُ السنةِ يعتقدون أن أصدق الكلام كلامُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ**"، وأجولُ فيه فأرى قولَه:

﴿ أهلُ السنةِ والجماعةِ إيمانُهم بما وصف الله به نفسَه خالٍ من التحريف؛ يعني تغييرِ اللفظ والمعنى ﴾[٦].

ولا أنسى ذاك الذي هممتُ بتحديثِه عن الإسلام؛ فكان أولُ طلبٍ له أن أكون صادقًا معه، ولَمّا علمتُ منه أنه تنقل بين أكثر من ملةٍ باطلة، عرفت سرَّ هذا الطلب، فكم من مرةٍ دعاه داعٍ بكلامٍ أعجبه! حتى إذا صدقه ووقف على حقيقةِ الأمر بنفسه، علم أن ذلك الداعي قد كذبه، ولِمَ يكذب إن كان الصدقُ يكفيه ؟! فالعيبُ إذن في ملةٍ ناقصة !

إن المبطلَ لا يلتزم بمصدرٍ للتشريع ثابت، ويستغيثُ بالتأويل المتعسفِ للنصوص، ويفرُّ للكذب لتسويقِ باطله، وما أُتِي إلا من قِبل باطلِه، فالباطلُ لا ثبوتَ له، ولا التزامَ فيه بنص، ولا بد من الكذب لتفادي نُفرةِ القلب منه، بينما يستغني أهلُ الحق بالأدلة الشرعية، وما تحمله من براهينَ عقلية، لا يَلزمهم تأويلٌ مبطِلٌ للمعنى، ولا كذبٌ مبطلٌ لحقيقة الدعوة، ولا أقول إنهم يؤمنون بأن الحكمَ والتشريعَ لله وحده فحسب، بل إنهم يعلمون أن من رضي بغير الله حَكمًا ومُشرعًا فقد خرج من ملة الإسلام.

فأين في عقلِ العاقل ملةٌ باطلةٌ تجعل من قواعدِها وحدةَ مصدرِ التشريع، وتلتزم بفهم النصوصِ وفق لسانٍ ثابت، وتوجبُ الصدقَ في الحديث، ولا يوجدُ فيها كذبٌ لأجلِ مصلحة الدعوة، ثم تكتفي بما عندَها من أدلةٍ، ولا تنغلقُ على نفسها بل توجبُ الدعوة، أين الملةُ الباطلةُ التي تقومُ على هذه الأصول ؟!

إذا كان الباطلُ ينهالُ منهارًا إن جُوبِه بقولنا: ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٧]، فإنّ الإسلامَ يمتازُ متميّزًا بأنّ فيه برهان صدقِه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾[٨]، إنك لترى هذه المقابلةَ متكاملةً وتستشعرُ هذا الفرقَ جليًا في قوله تعالى:

**هوامش المقال:**

[١] قواعد المنهج السلفي، مصطفى حلمي، ٢١٢.

[٢] درء التعارض، ابن تيمية، (١٢٣/١).

[٣] إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، (٩٢/٢).

[٤] في بعض الحالات المرضية spermatocele يحدث تجمع لسائل به حيوانات منوية في حويصلة، وفي بعض الأحيان تصل هذه الحويصلة إلى حجم كبير، حتى يكون الأمر أشبه بـ"خصية ثالثة"، وفي القرن الرابع عشر أرسل أحد الرجال طلبًا للبابا ليأذن له أن يتزوج بامرأة ثانية لأن له خصية ثالثة، وقد أذن له البابا، ولم أعجب من هذا الربط بين تعدد الزوجات والخصية الثالثة في شريعة تحب أن توصف بأنها شريعة الزوجة الواحدة!! بقدر ما عجبت من اعتقاد آدمي أن آدميًا مثله له سلطة الأمر والنهي باسم الرب!! وانظر تسجيل هذه الحادثة في صفحة ١٤١٠ من الكتاب الجراحي:
Bailey & Love's short practice of surgery" ٢٤th edition"

[٥] الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، (٦٨/٢-٦٩).

[٦] شرح العقيدة الواسطية، العثيمين، ٥٨.

[٧] سورة البقرة:١١١، سورة النمل:٦٤.

[٨] سورة النساء:٧٤.

## قال الحسن البصري:

المؤمن من علم أن ما قال الله كما قال، والمؤمن أحسن الناس عملاً، وأشد الناس وجلاً، فلو أنفق جبلاً من مالٍ ما أمِن دون أن يعاين، لا يزداد صلاحاً، وبراً إلا إذا ازداد فَرَقاً، والمنافق يقول: سواد الناس كثير وسيغفرُ لي ولا بأس عليَّ فيسيءُ العمل ويتمنى على الله.

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي
الجزء الأول (ص٤٥١)

## قال المُزني:

سمعت الشافعي يقول: من تعلم القرآن عظُمت قيمتُه، ومن تكلَّم في الفقه نما قدرُه، ومن كتب الحديث قويت حُجَّتُه، ومن نظر في اللغة رقَّ طبعُه، ومن نظر في الحساب جزل رأيُه، ومن لم يَصُنْ نفسه، لم ينفعه علمُه.

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي
الجزء الثاني /ص ٧٣٤

## قال الإمام مالك:

أكُلَّما جاءنا رجلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تركنا ما نزل به جبريلُ على محمد صلى الله عليه وسلم لجدلِه؟!

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي
الجزء الثاني /ص ٦٢٢

# الداروينية غير ممكنة من منظور فيزيائي

بقلم د ساهر

إنَّ فرضيةَ التطورِ أو كما أصبحت تُسمى بالداروينيةِ كانت قد أُسست على يدِ **لامارك (Lamarck)** الذي يُعتبرُ الأبُ المؤسسُ لهذه الفرضيةِ ولكنها لم تشتهرْ على يدِه لأنه كان يُسنِدُ هذه الفرضيةَ إلى اللهِ تعالى على أنه أعطى للطبيعةِ والأشياءِ قابليةَ التطور.

وقد حَظيت هذه الفرضيةُ باهتمامٍ كبيرٍ في عهد الشيوعيةِ على يدِ هاوٍ إنجليزيٍّ يدعى **تشارلز روبرت داروِن (Charles Darwin)** الذي كان يبحثُ في موضوعِ الطبيعةِ والكائناتِ الحيةِ بالرغم من عدم تَلقيهِ أيَّ تعليمٍ في علمِ الأحياء. بدأ داروِن اهتمامَه هذا في رحلةٍ استكشافيةٍ على مَتنِ سفينةٍ أبحرت من إنكلترا عام ١٨٣٢ م وجابت مناطقَ مختلفةً من العالمِ لمدةِ خمسِ سنواتٍ بحيثُ استنتجَ من خلال مشاهداتِه بأن اللهَ لم يخلُقْ مختلفَ أنواعِ الأحياءِ بشكلٍ منفصل، بل إنها انحدرت من سَلَفٍ مشتركٍ واختلفتْ عن بعضِها البعض نتيجةً للظروفِ الطبيعيةِ والتكيفِ مع البيئة. وأطلق داروِن على فرضيتِه هذه اسمَ (**التطور بالانتقاءِ الطبيعي**) أي أن صفاتَ الكائنِ الحيِّ الحاليِّ تختلفُ عن صفاتِ أسلافِه بحيثُ أنَّ الصفاتَ الحميدةَ هي التي تبقى بينما تتلاشى الصفاتُ السلبية.

وبالرغم من أن هذه الفرضيةَ لم تَستندْ وقتَها على أيِّ اكتشافٍ أو تجربةٍ علمية، وباعترافِ داروِن في كتابه بأن فرضيتَه هذه تعاني من مشكلاتٍ كثيرةٍ إلا أنها قد حَظيتْ في ذلك الوقتِ باهتمامٍ كبيرٍ لا تستحقُّه على أيدي كلٍّ من الفاشيةِ النازيةِ والشيوعية.

فإذا ما قرأتَ كتابَ **"كفاحي"** للزعيمِ الألمانيِّ **هتلر** الذي أَسسَ الأيديولوجيةَ النازيةَ فسوف تجدُ أنه قد تأثرَ كثيرًا بفرضيةِ داروِن، فتجدُه

يتحدثُ عن الصراعِ من أجلِ البقاءِ بين الأجناسِ وأن الجنسَ الأدنى يخضعُ للجنسِ الأعلى وهو يَعتبرُ ذلك حقًّا يراه في الطبيعةِ، والبقاءُ دائمًا للأصلحِ بحيث يجبُ إبادةُ الضعفاءِ لإنتاجِ مجتمعٍ أفضل.

أما الشيوعيون فقد كانوا يعتبرون الماركسيةَ تطبيقًا للداروينيةِ في العلومِ الاجتماعية، وأن فرضيةَ التطورِ هي أساسُ فلسفتِهم الماديةَ، وأن التطورَ في الطبيعةِ ممكنٌ أن يكون بفضلِ النزاعِ والصراعِ من أجلِ البقاء، فكان أثرُ هذه الفلسفةِ الشيوعيةِ أن قتلت أكثرَ من مئةِ مليونِ شخصٍ طوال القرنِ العشرين.

## آليةُ هذه الفرضية

تَدَّعي فرضيةُ داروِن بأن الحياةَ قد تطورت نتيجةَ: **الانتقاءِ (الانتخاب) الطبيعيِّ والطفرة**، بحيث تتطورُ الكائناتُ الحيةُ عن طريقِ طفراتٍ عشوائيةٍ تَحدثُ في تركيبها الجيني (DNA)، ومن ثَمَّ يتمُ انتقاءُ الصفاتِ الحميدةِ الناتجةِ عن الطفراتِ عن طريقِ آليةِ الانتقاءِ الطبيعي، وهكذا.

ولعل من الأفضلِ الحديثُ عن هاتين الآليتين كي تتضحَ الأمور:

## الانتخابُ الطبيعي:

يُعتبرُ الانتقاءُ أو الانتخابُ الطبيعيُّ آليةً تحافظُ على ثباتِ الأنواعِ دونَ إفسادِها ولا يُوجدُ أيُّ دليلٍ علميٍّ تجريبيٍّ حتى يومِنا هذا يُثبتُ أن الانتقاءَ الطبيعيَّ هو السببُ في تطورِ الكائناتِ الحيةِ إلا في أذهانِ أصحابِ هذه الفرضية!

فمثلاً وحسْبَ هذه النظريةِ فإن الأرانبَ الغيرَ سريعةٍ في الركضِ لن تبقى بينما تبقى تلك الأرانبُ السريعةُ فقط ، وهذا صحيحٌ فعليًّا في الأماكنِ التي تكثرُ بها الحيواناتُ المفترسة، ولكن هذا لا يعني أن الجيلَ الثاني من الأرانبِ التي تُولدُ دائمًا تكتسبُ صفةَ الركضِ السريعِ، ولا يمكنُ لهذه المواليدِ الجُددِ أن تتحولَ إلى نوعٍ آخرَ من الأحياء!

## الطفرة:

تُعرفُ الطفرةُ بأنها تغييرٌ عشوائيٌّ يَحدثُ على تركيبةِ الشيفرةِ الوراثية (DNA) بحيث يتمُّ قطعٌ أو استبدالٌ للجينات المكونةِ للشيفرةِ الوراثيةِ مما يسببُ تدميرًا وضررًا لدرجةٍ تعجزُ معها الخليةُ عن إصلاحِه، فهي لا تُضيفُ أيَّ معلوماتٍ جديدةٍ إلى جُزيء (DNA) إلا أن الداروِنييونَ يُصورون الطفرةَ على أنها عصًا سحريَّة تَحدثُ عن طريقِ الصدفةِ ودائمًا ينتجُ عنها صفاتٌ حميدةٌ ومفيدةٌ تُحَوِّلُ الكائناتِ الحيةِ إلى شكلٍ أكثرَ تطوراً ! ولأن الواقعَ العلميَّ الذي نعيشُه مليءٌ بالأدلةِ التجريبيةِ فلم يُقَدَّمْ أيُّ دليلٍ

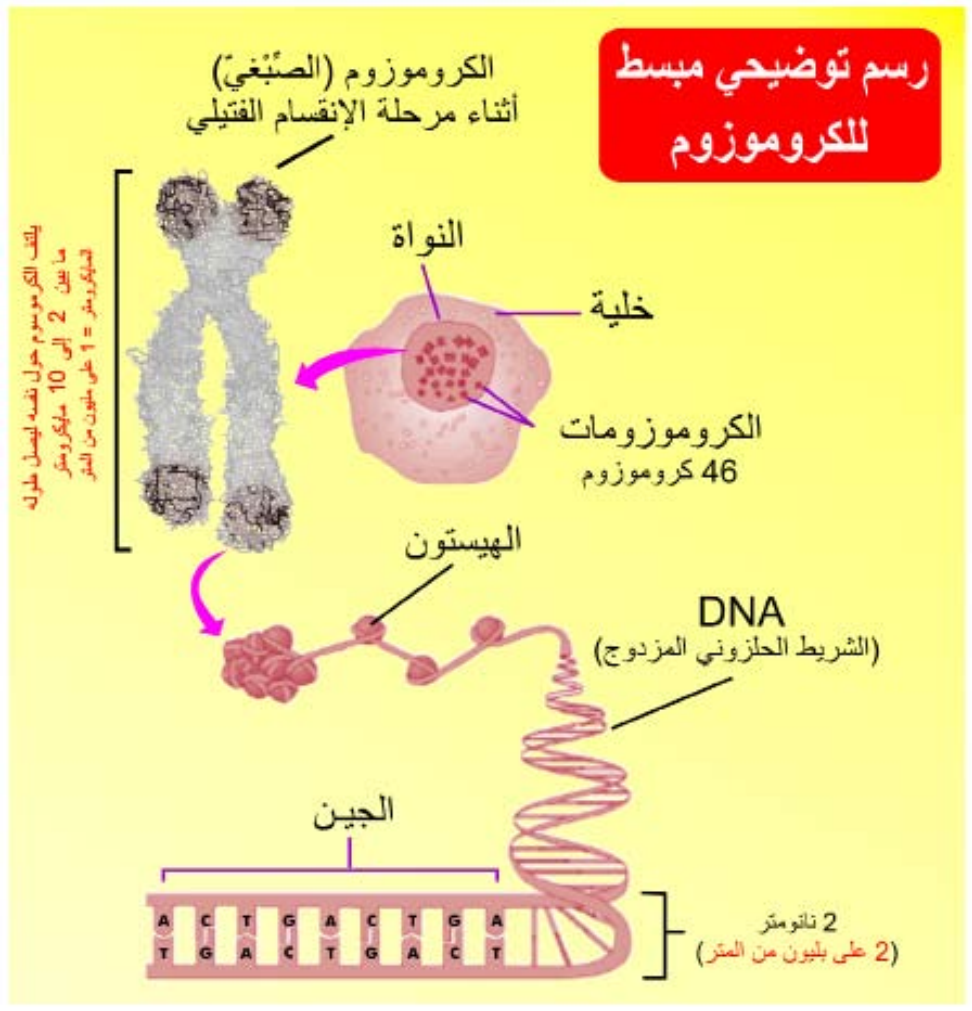

بحثيٍّ على ظهورِ أيةِ طفرةٍ مفيدةٍ حتى الآن، فقد أثبتت كلُّ الطفراتِ أنها ضارةٌ ومسببةٌ للتشوهاتِ الجسديةِ أو الإعاقاتِ السلوكيةِ أو عاهاتٍ، مثلَ المنغولية (متلازمةُ داون)!

## آلياتُ التطورِ في المنظورِ الفيزيائي

لكي يَحدثَ التطورُ فلا بُدَّ أن تحدثَ طفرةٌ في الخلايا التناسليةِ للكائنِ الحيِّ لكي تنتقلَ إلى الجيل اللاحق. ولا يُلزمُ في أيِّ تغيُّرٍ عشوائيٍّ يَحدثُ عرَضاً في أيِّ خليةٍ أخرى أو عضوٍ في الجسمِ أن ينتقلَ إلى الجيلِ التالي. فمثلاً: لن يُوَرَّثَ حدوثُ بترٍ في أُصبعِ اليدِ أو حرقٍ في جلد الإنسانِ إلى الأجيال اللاحقة.

وإذا أردنا النظرَ إلى التطورِ من منظورٍ فيزيائيٍّ وباستخدامِ القانونِ الثاني للديناميكا الحراريةِ فإن النظامَ الفيزيائيَّ (System) هو الشيفرةُ الوراثيةُ (DNA) والتي يمكن اعتبارُها إما **نظامًا مفتوحًا** (Open System) أو **نظامًا مغلقًا** (Closed System)، ولا يمكن اعتبارُها نظامًا معزولاً (Isolated System)

وذلك لأن الخليةَ بمحتوياتِها تستمدُّ طاقتَها من (الميتوكوندريا)، وغذاءَها من تغذيةِ الوسط الداخلي بالدم.

### ✳ الشيفرةُ الوراثيةُ كنظامٍ مغلق:

عند اعتبارِ الشيفرةِ الوراثيةِ كنظامٍ فيزيائيٍّ مغلقٍ فهذا يتطلبُ مرورَ الطاقةِ فقط (وليس المادةَ) كالسوائلِ مثلا عبرَ حدودِ النظام (أي حدودِ الشيفرةِ الوراثيةِ الموجودةِ في الخليةِ التناسلية). وبالتالي فإن عاملَ العشوائيةِ (الانتروبيا) الذي يَلزمُ لحدوثِ الطفرةِ سيكونُ من مصدرينِ أحدُهما من البيئةِ الخارجيةِ (كالطبيعةِ مثلا) والآخرُ مصدرٌ داخليٌّ أيضًا ينحصرُ داخلَ النظامِ المغلق. وحيثُ أن الطاقةَ ثابتةٌ داخلَ النظامِ، وبناءً على الترتيبِ المنظمِ والمذهلِ والملحوظِ لجيناتِ الشيفرةِ الوراثيةِ، فإن عاملَ العشوائيةِ (الانتروبيا) الداخليَّ سيكونُ ثابتًا وقليلاً جدًّا. وعليه فإن الشيفرةَ الوراثيةَ كنظامٍ مغلقٍ لا يمكنُ لها أن تُحدثَ طفرةً ذاتيةً لأن درجةَ العشوائيةِ (عاملُ الانتروبيا) فيها قليلةٌ جدًّا.

الكروموسومات كما تظهر داخل الخلية

أما بالنسبةِ للعشوائيةِ الخارجيةِ التي قد تُحدثُ طفرةً داخليةً فهذا يُلزمُ أن يتمَّ تغييرُ الطاقةِ الداخليةِ للنظامِ المغلقِ أولاً بحيث يتمُّ كسرُ كلِّ

الروابطِ بين جيناتِ الشيفرةِ الوراثيةِ والتي قد يَنجمُ عنها تهتُّكُ بعضِ الجيناتِ ومن ثَم إعادةُ ترتيبِها مرةً أخرى بحيث يُحتملُ حدوثُ استبدالِ جينٍ بجينٍ آخرَ أو قَطْعِه وتَهتِّكَه، وهذا ما يحدثُ في حال تَعرُّضِ الخلايا التناسليةِ لنشاطٍ إشعاعيٍّ أو مجالٍ للطاقةِ النوويةِ بحيث يحدثُ في ظرفٍ زمنيٍّ يتمثلُ بجزءٍ من ثانية! وليس كما تدَّعيه فرضيةُ التطورِ من انتقاءٍ طبيعيٍّ قد يستغرقُ آلافَ السنوات! ولا يوجدْ بحثٌ علميٌّ يُقدِّمُ أيَّ مثالٍ آخرَ تجريبيٍّ من الطبيعةِ قد يُحدثُ استبدالاً للجينِ من غير نشاطٍ في الطاقة.

وكما هو معروفٌ فإن الخلايا العصبيةَ والشيفرةَ الوراثيةَ لا يمكنُ إصلاحُ أيِّ عُطلٍ فيها لأنها غيرُ متجددةٍ وبالتالي لا يوجدُ فيها نظامٌ ذاتيُّ التَّحكم بحيث ينتقي النشاطَ الحيويَّ المفيدَ ويطردَ غيرَ المفيد! وهذا يُثبتُ أن أيَّ طفرةٍ عشوائيةٍ ليست خاضعةً لنظامٍ ذاتيِّ التحكمِ أو انتقائي.

### ✳ الشيفرةُ الوراثيةُ كنظامٍ مفتوح:

ما ينطبقُ على النظامِ المغلقِ ينطبقُ على النظامِ المفتوح، إلا أنَّ النظامَ المفتوحَ يسمحُ لبعضِ السوائلِ المتواجدةِ في الخليةِ بالمرورِ والتدفقِ من خلالِه، وهذا التدفقُ قد يُسببُ زيادةً في العشوائيةِ التي ما تلبثُ أن تَثبُتَ مرةً أخرى لأن الخليةَ تَخضعُ في عملِها للضغطِ الإسموزيِّ الذي يُنظمُ كلَّ نشاطاتِ الخليةِ الداخليةِ وبالتالي يُنظمُ الطاقةَ الميكانيكيةَ الداخليةَ الناجمةَ عن حركةِ السوائلِ في داخلِها.

ولكن هل يمكنُ أن تعملَ هذه (الانتروبيا) العشوائيةُ الداخليةُ للنظامِ المفتوحِ على إحداثِ طفرةٍ جينية؟ الجوابُ العلميُّ المنطقيُّ لهذا السؤالِ هو النفيُ وذلك من خلالِ البحوثِ العلميةِ التي جَمعتْ الإحصاءَ الانتروبيَّ بالديناميكا الحراريةِ وتمثلتْ **بقانونِ بولتزمان (Boltzmann)** والذي يستند على أنَّ:

**أيَّ مركبٍ يتكونُ من سلسلةٍ طويلةٍ ومن وحداتٍ متشابهةٍ ومكررةٍ فإن تلك الوحداتِ (والتي هي في حالةِ الشيفرةِ الوراثيةِ عبارةٌ عن جيناتٍ مكررةٍ) تتحركُ في موقعِها بحركةٍ اهتزازيةٍ تعملُ بشكلٍ كليٍّ على جعْلِ هذه السلسلةِ تتحركُ باعوجاجٍ أشبهَ ما يكونُ بحركةِ الأفعى مما يزيدُ من الانتروبيا.**

ولكن البحوثَ العلميةَ الحديثةَ قد أجْرت هذه التجربةَ الإحصائيةَ المخبريةَ على الشيفرةِ الوراثيةِ وأثبتتْ أن العشوائيةَ الانتروبيا قليلةٌ جدًا جدًا! لأن تركيبَ وشكلَ الشيفرةَ الوراثيةَ هو حلزونيٌّ خَطيٌّ بأزواجٍ جينيةٍ متلاحمةٍ يَصعبُ أن تنفصلَ ذاتيًا أو نتيجةَ حركةٍ اهتزازية! [١]

فماذا بقي كي نُثبتَ أن العشوائيةَ في قَطعِ أو استبدالِ جينٍ في الشيفرةِ الوراثيةِ لا يمكنُ حدوثُه تلقائيًا أو تحت نظامٍ ذاتي! وإن حدثَ نتيجةَ تَعرُّضِ الخليةِ التناسليةِ لأيِّ عارضٍ مرضيٍّ أو إشعاعيٍّ أو نوويٍّ فإنه يَحدثُ بشكلٍ فوريٍّ وينتجُ عنه صفاتٌ سلبيةٌ تتمثلُ بتشَوهاتٍ وإعاقات!

## النتيجة

عدمِ وجودِ أيةِ آليةٍ في الطبيعةِ يمكنُ أن تؤدي إلى تطورِها، ولأن فكرةَ حدوثِ الطفرةِ عشوائيًا لا يمكنُ أن تتفقَ وقوانينَ الفيزياءِ أو قانونِ الديناميكا الحراريةِ الثاني سواءً في الطبيعةِ أو داخلَ الشيفرةِ الوراثية، وعليه تكون فرضيةُ التطورِ واردةً في أذهانِهم وليس في واقعِ العيان.

## المراجع:

[١] Peter N. Yianilos & David Loewenstern, «Significantly Lower Entropy Estimates for Natural DNA Sequences» , ١٩٩٦

# العلمانية وثقافة السلام

بقلم د. أحمد إدريس الطعان

في الوقت الذي كان فيه الإنكليزُ يحتلون البلادَ العربيةَ والإسلامية، ويرتكبون الفظائعَ من قتلٍ وتدميرٍ وإبادةٍ وتجويعٍ وتجهيلٍ في العراقِ، والهندِ، ومصرَ، كان **سلامةُ موسى** يتغزلُ بالإنجليزِ فهم "النظافُ الأذكياء"[١]. وهم "أرقى أُمةٍ موجودةٍ في العالم، والخُلقُ الإنجليزيُ يمتازُ عن سائر الأخلاق، والإنسانُ الإنجليزيُّ هو أرقى إنسانٍ من حيث الجسمُ والعقلُ والخُلقُ"[٢]، ثم دعا إلى التعاون معهم وهم يحتلون البلاد، ويَقتلون العبادَ فقال: "فنحن إذا أخلصنا النيةَ مع الإنجليزِ فقد نتفقُ معهم إذا ضمِنا لهم مصالحَهم، وهم في الوقت نفسِه إذا أخلصوا النيةَ لنا، فإننا نقضي على مراكزِ الرجعيةِ في مصر، وننتهي منها، فلنُولِّ وجوهَنا شطرَ أوربا"[٣].

هذا هو ثمنُ السلامِ بنظرِ **سلامةِ موسى** أن نتعاونَ مع الإنجليز، ونضمنَ لهم مصالحَهم، ومصالحُهم أن يظلوا جاثمينَ على صدرِ مصر، ينهبون خيراتِها ويستذِلون أهلَها، ويدوسون كرامتَها، ولكن هذا لا يُشكلُ خطراً على **سلامةِ موسى** لأنه سيظلُ هو والنخبةُ الربيبةُ ينعمون بالرفاهية، ويتمتعون بالخيراتِ ما دام أسيادُهم راضين عنهم، آمنين لجانبِهم.

والربحُ الذي يحققُه **سلامةُ موسى** من التعاونِ مع الإنجليزِ هو القضاءُ على الرجعية، والرجعيةُ المقصودةُ عنده التي يحلمُ بالقضاءِ عليها هي الأزهرُ الذي يبثُّ فينا ثقافةَ القرونِ المظلمة، وشيوخَ الأزهرِ المأفونين، الذين لا يكُفون عن التوضؤِ على قوارعِ الطرق[٤]. أليس هذا هو الفاشيستُ الذي يتحدثون عنه؟!

واليوم يدعونا **طارقُ حجي** إلى الإيمانِ بحتمية الوصولِ إلى السلام مع اليهود، وعلينا أن نكافحَ لترسيخِ ثقافةِ السلامِ بدلاً من ثقافةِ العدوان[٥]، وأن نسيرَ على خُطى الساداتِ لكي تتجنبَ المنطقةُ السقوطَ في العنفِ والماضويةِ والتخلفِ والفقر، وعلينا أن نَقبلَ قيامَ دولةٍ ديمقراطيةٍ لا دينيةٍ على كاملِ ترابِ فلسطينَ يتساوى فيها اليهودُ والمسلمون والمسيحيون[٦]. ويعني هذا أن يتنازلَ الفلسطينيونَ عن مُقدساتهم، وعن حق العودةِ للمشردين من أبنائِهم، ويرضخوا لما يفرضُه منطقُ القوةِ اليهوديِّ والأمريكيِّ. إنها دعوةٌ للاستسلام تحت عنوان: "الإيمانُ بحتميةِ السلام".

أما **مرادُ وهبة** فالعلمانيةُ بنظرِه هي الحلُّ لمشكلةِ الشرقِ الأوسطِ في فلسطين[٧]؛ ذلك أنه يُعرِّفُ العلمانيةَ بأنها "النظرُ إلى النسبيِّ بما هو نسبيٌّ وليس بما هو مطلق"[٨]، ويعني بذلك سيادةَ النسبيةِ على كافةِ المستويات، وإقصاءَ المطلقاتِ من الوجود، لأنه لا وجودَ لحقيقةٍ مطلقة، والقولُ بها مجردُ خرافة، وسيادةُ المطلقِ يهددُ السلامَ العالميَّ، لأنها ستدخلُ في صراعٍ كما هو الحالُ بين المطلقاتِ الثلاثةِ: الإسلاميُّ واليهوديُّ والمسيحيُّ، وليس من وسيلةٍ لحل هذا الصراعِ إلا بالقضاءِ على المطلقات، ويَتم ذلك بنفي (**الدوجماطيقية**)، أي: نفيَ عِلم العقيدة؛ لأن مفهومَ الحربِ كامنٌ في هذا العلم[٩]. لأن هذا العلمَ قائمٌ على اليقين، "واليقينُ لا يمكنُ أن يكون إلا مغلقاً، ولهذا فهو يؤولُ في المنتهى إلى (الدوغمائية) التي تُترجَمُ تعصباً وتحزباً وربما عنفاً وإرهاباً"[١٠]. ومع أن هذا الكلامَ لا يُرضي الناطقينَ باسمِ الغائبِ، والمدافعينَ عن العقائدِ، وحُراسَ النصوصِ، كما يقول الخطابُ العلماني[١١] إلا أنه يُقررُ ذلك ليؤكدَ على أن الصراعَ العربيَّ اليهوديَّ في النهايةِ هو صراعُ مطلقات، والحلُّ الوحيدُ هو في العلمانيةِ لأنها المُضادُّ الحيويُّ للأصولياتِ الدينيةِ التي تغذي المطلقاتِ وتتغذى منها[١٢]، وعلى ذلك بدلاً من شعار "الإسلامُ هو الحل" تصبح "العلمانيةُ هي الحل".

ولكنْ تجاهلَ **مرادُ وهبة** هنا أن العلمانيةَ تصالحت مع الصهيونيةِ واليهوديةِ وبررت لهم وجودَهم في فلسطين، وشرّعت لاستمرارِهم فيها على حسابِ العربِ والمسلمين الذين لم يربحوا شيئاً، ولم يحصلوا على شيءٍ من علمانيةِ **مراد وهبة**، إلا إذا كان مرادُ وهبة وأمثالُه سيُجيبون بأن الربحَ العربيَّ يتمثلُ في النجاةِ من القنابلِ النوويةِ اليهودية، وهذا ما لا يحسبُ الأصوليونَ المسلمون حسابَه، لأن الخوفَ من الموتِ لا يردعُهم عن المطالبةِ بحقوقِهم ولديهم من الآلياتِ والوسائلِ "الإرهابيةِ"[١٣] ما يجعل يهودَ تفقد صوابَها.

## بقي أن نتساءل:

ألم تتحولْ علمانيةُ **مراد وهبة** إلى مُطلقٍ هي أيضاً ينفي المطلقاتِ الأخرى؟ فإذا قرر هو وشيعتُه أن "العلمانية هي الحل" وقرر المسلمونَ بشكلٍ مطلقٍ أن "الإسلام هو الحل" وقررت يهودُ أن "التلمود هو الحل" أفلا تدخلُ العلمانيةُ هنا طرفاً جديداً فيما يسميه "صراع المطلقات"، وبالتالي فإن أيةَ رؤيةٍ تُطرح على أنها الحلُّ هي بنظر أصحابِها مطلقٌ على الآخرين أن يرضخوا له، وهكذا فإنه لا خلاصَ من المطلق، ولا بد من مطلقٍ واحدٍ تُذعن له كلُّ الأطرافِ المعارضة[١٤].

ونتساءلُ مرةً أخرى: هل حربُنا مع اليهودِ هي حربُ مطلقات؟ في الواقع لا، لأننا نحن لا نحاربُ اليهودَ لنُدخلَهم قسرًا في مطلقنا الإسلامي، ويهودُ لا تحاربُنا لتُدخلَنا في مطلقِها اليهودي، نحن نريدُ أن نستعيدَ أراضينا المغتصبةَ -في إطار وعودٍ ومؤامراتٍ دُبِّرت- على مرأىً ومسمعٍ من كل العالم، ونريدُ أن يعودَ الشعبُ المشردُ الطريدُ في كل بقاعِ العالم إلى أرضِه وديارِه، ويريدُ الشعبُ المضطهدُ المقموعُ أن يتخلصَ من الاضطهادِ والقمع، ويتمتعَ بحريتِه وكرامتِه واستقلالِه، فأين المطلقاتُ في هذا الصراع؟ وإذا كانت حربُنا مع اليهودِ حربَ مطلقاتٍ فإن هذا يعني أنه لا يوجدُ خلافٌ بين شخصين في محكمةٍ إلا ويمكنُ تسميتُه أيضاً "صراعَ مطلقات"، وأن الإنسانَ الذي يأتي ليغتصبَ منزلَ **مراد وهبة** أو يعتدي على أسرتِه أو حياتِه، على **مرادِ وهبة** تجاهه ألا يدافعَ عن نفسِه -طبقاً لعلمانيتِه أو لنسبيتِه- حتى لا يدخل في صراع المطلقات.

ولكن الأمرَ المستغربَ في هذا العصرِ عصرِ الغرائبِ أن الضحيةَ التي تُذبح وتُخنق هي التي توصمُ بالعنفِ والإرهابِ والعدوان، أما الجاني فهو داعيةُ الحريةِ والديمقراطيةِ ورافعُ لواءِ التحضر، وراعي السلام!!

أرأيت لو أن شخصاً قام يخنق شخصاً آخر، وبالطبع فإن المخنوقَ سيدافعُ عن نفسِه بأظافرِه وأسنانِه، وربما يتسببُ في بعض الخدوش التي تلحقُ خانقَه،أرأيت لو أن الجاني قام بعد أن يفرُغَ من ضحيته وعقدَ مؤتمراً رامَ فيه أن يُقنعَ الناسَ بأن الضحيةَ كان إرهابياً عنيفاً عدوانياً، لماذا؟ بسبب هذه الخدوشِ والجروحِ التي لحقت به!! أليست هذه مهزلة؟!! إن هذا ما يحدثُ اليوم في غابةِ البشر، ولكن لا عليك فنحن في عصر المهازل!

نحن أمةٌ تُذبحُ وتُبادُ وتُخنقُ، وبدلاً من أن يتصايحَ أبناؤُها للجهاد، وينفروا خفافاً وثقالاً بأموالِهم وأنفسِهم، تجدُ دورَ النشر ومؤتمراتِ الحوارِ ورَهطٍ كبيرٍ من الباحثينَ يدعون إلى اللاعنفِ، واللاإرهابِ، واللاعدوان!!

**رضي اللهُ عن سعدِ بنِ معاذ!!**

**وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم،**

**والحمد لله رب العالمين.**

**الهوامش :**

[١] سلامة موسى، "اليوم والغد"، ص ٢٣٩.

[٢] السابق: ص ٥٨-٦٣.

[٣] السابق: ص ٢٥٧.

[٤] انظر: السابق ص ٢٢٩-٢٣١.

[٥] انظر: د. طارق حجي، "الثقافة أولاً وأخيراً"، ص ١١١.

[٦] انظر: د. طارق حجي، "الثقافة أولاً وأخيراً"، ص ٢٥. ملاحظة: قد تكون هذه الدولة هي التي دعا إليها القذافي تحت اسم "إسراطين".

[٧] انظر: د. مراد وهبة، "ملاك الحقيقة المطلقة"، ص ٣٦٦.

[٨] السابق: ص ٢٩.

[٩] انظر: السابق، ص ٣٥٣.

[١٠] علي حرب، "نقد النص" ص ٢٢.

[١١] انظر: السابق، ص ٢٣.

[١٢] انظر: السابق، ص ٣٦٦.

[١٣] إن كلمة إرهاب في القرآن ذات مدلول إيجابي وهو الردع، ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال:٦٠]، عندما يكون الإرهاب من أجل الدفاع عن الحق أو الحصول عليه فنِعمَ الإرهاب هو. ولكنَّ الكلمة شُحنت بمعانٍ سلبيةٍ دمويةٍ تتبادرُ إلى الأذهان بسبب الترويجِ الإعلامي الغربي والعربي المستمر والمتكرر.

[١٤] لقد تجلى ذلك فيما آلت إليه العلمانيةُ في أبرز صورها وذلك في الغطرسة الأمريكية التي كشَّرت عن أنيابِها بكل صراحةٍ في غزو العراق ورفضت الإذعانَ لمقررات الأممِ المتحدةِ التي هم واضعوها ولكنها لم تَعُد تخدم مصالحَهم فأصبحت الرؤيةُ الأمريكيةُ اليومَ هي المطلقَ الذي يجب على كل الآخرين الإذعانُ له وإلا واجهوا الموتَ تحت وابلِ القنابل الذكية، وهكذا لم تجدْ العلمانيةُ مفراً من المطلق.

أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه، فتشكره عليها، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك.

الفوائد: ص١٢٧

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (اقتضاء الصراط المستقيم):

إن المشابهة في الظاهر تورث نوع مودةٍ ومحبة، وموالاةٍ في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة.

عن خالد بن معدان، قال: ما من آدميٍّ إلّا ولَهُ أربعُ أعين: عينان في رأسه يُبصِرُ بهما أمرَ الدنيا، وعينانِ في قلبه، فأبصَرَ بهما ما وُعِد بالغيب، فآمَنَ الغيبَ بالغيبِ.

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي
الجزء الأول - ص ٤٤٠

عن وهب بن منبه:

قرأتُ في بعض الكتب: ابنَ آدمَ، لا خير لك في أن تعلَمَ ما لم تعلَم ولم تعمل بما علِمت، فإن مثَلَ ذلك كرجلٍ احتطب حَطباً فحزَم حُزمةً، فذهب يحمِلُها فعجز عنها، فضمَّ إليها أخرى.

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي - الجزء الأول: ص٤٤٢

# الملحدون مشركون

## فصل من كتاب الفيزياء ووجود الخالق

أ. د. جعفر شيخ إدريس

إن وجود خالق للكون أمر تعرفه العقول بداهة؛ لذلك لم يكن ينكر وجود الخالق فيما مضى إلا فئات قليلة من البشر كما قدمنا، ولذلك كانت الرسالات السماوية تبنى على إقرار الناس بوجود الرب، وأنه الذي خلقهم ويرزقهم، ويحييهم ويميتهم، ثم تزيدهم علماً به، وتدعوهم إلى عبادته وحده دون سواه مما يعلمون أنه لم يخلق ولم يرزق، ولا يحي ولا يميت، ولا يتصف بشيء من صفات الخالق.

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

[العنكبوت : ١٦، ١٧]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[البقرة : ٢١ ، ٢٢]

حتى الذين أنكروا وجود الخالق، والذين يسمَّون في عصرنا بالملحدين، لا ينكر معظمهم وجود الخالق أي خالق، وإنما ينكرون وجود الخالق الحق الذي دعتهم إلى الإيمان به رسالات السماء، والذي كان يؤمن بربوبيته من يشرك معه غيره في عبادته.

انظر إلى حال الملحدين في عصرنا: تراهم - إذا أنكروا وجود الخالق الحق - يعزون حدوث الأشياء إلى أشياء أخر، وهم وإن لم يسموها بالخالقة إلا أنهم يقيمونها مقام الخالق سبحانه، بل ويضفون عليها بعض صفاته.

خذ الملحدين في عصرنا مثلاً؛ لقد كان عمدتهم في إلحادهم قولهم بأن (المادة أزلية لا تستحدث ولا تفنى)، وكانوا يعتقدون أن هذا شيء أثبته العلم فلا مجال للخلاف فيه. لكن المادة التي يتحدثون عنها ويصفونها بهذا الوصف ليست هي المادة التي نعرفها ونتعامل معها في حياتنا اليومية وفي معاملنا العلمية؛ إن المادة التي نعرفها هي مادة في صورة من أجسام سماوية، أو أجسام أرضية، أو مكونات هذه الأجسام: الذرات ومكونات الذرات، والفوتونات وما أشبه ذلك، لكن ليس شيء من هذا أزلياً، بل إن كل مادة في صورة من الصور تحدث وتزول، وأما المادة التي لا صورة لها فإنما هي – كما قال **ماركس** -:

﴿ وَهْمٌ في أذهان الفلاسفة لا وجود له في الخارج ﴾.

وإذا كانت المادة قد أعطيت صفتين من صفات الخالق هم الأزلية والأبدية - إذ الله وحده الأول الذي ليس لأوليته ابتداء، والآخر الذي ليس لآخريته انتهاء – فإن شيئاً اسمه الطبيعة قد عزيت إليه بعض أفعال الخالق سبحانه. فأنت كثيراً ما تسمع الملحدين، ومن يقلدهم - وإن لم يكن ملحداً مثلهم - يقولون إن الطبيعة فعلت كذا وكذا، وأنها اختارت كذا وكذا.

لكن الطبيعة التي نعرفها ونتعامل معها في حياتنا اليومية والعلمية هي مجموع الكائنات الحية والجامدة والسائلة، وهذه الموجودات هي التي تنفعل، هي التي تُجد وتتكون وتنمو وتفنى؛ فأين هي تلك الطبيعة التي تفعل كل هذا بالطبيعة هذه التي نعرفها؟ أهما طبيعتان حقاً؛ الواحدة تفعل والثانية تنفعل؟ كلا .. وإنما الطبيعة الحقة هي هذه الطبيعة التي نشهدها.

وأما الأخرى - التي تقام في مقام الخالق سبحانه - فإنما هي وَهْمٌ كبير في رؤوس الملحدين.

الملحدون اليوم والذين ينكرون وجود الخالق يعزون في نفس الوقت حدوث الأشياء إلى أشياء أخر، وهم وإن لم يسموها بالخالقة إلا أنهم يقيمونها مقام الخالق سبحانه، بل ويضفون عليها بعض صفاته كالأزلية والأبدية !!

وما يقال عن الطبيعة يقال عن التطور؛ إن التطور في مفهومه العلمي هو:

﴿ الطريقة المتدرجة التي نشأت بها الكثرة الحاضرة في الحياة النباتية والحيوانية عن أقدم الكائنات الحية وأكثرها بدائية ﴾

(القاموس العلمي)

فالتطور إذن هو الطريقة التي حدث بها هذا التنوع، وليس هو صانع التنوع. لكن الملحدين يتحدثون عنه كما لو كان هو الفاعل.

يقول (**دارون**) - في الطبعة الثانية من كتابه: (**أصل الأنواع**) -:

﴿ يمكن أن يقال – مجازاً – إن الانتقاء الطبيعي مستمر في تفحصه في كل يوم وكل ساعة – وفي العالم كله – لكل تغير وإن دق، رافضاً للسيئ حافظاً وجامعاً لكل ما هو جيد، عاملاً في صمت ولطف؛ كلما سنحت فرصة لتحسين كل كائن حي بالنسبة لظرف حياته المادي وغير المادي. ونحن لا نرى شيئاً من هذه التغيرات البطيئة وهي تحدث، حتى تضع يد الزمان علامة على الآماد الطويلة التي مضت ﴾

يقول (**ستانلي**) - الذي نقلت عنه هذا النص الداروني -:

﴿ إن دارون لم يضف كلمة (مجازاً) إلا في الطبعة الثانية من كتابه ﴾

ويفسر هذا الإضافة بأنه وقد كان يعيش في عصر كان يدَّعي فيه غيره وجود قصد إلهي للحياة، أراد -فيما يبدو- أن يبين للقارئ أنه لا مكان في حجته لمثل هذا الكلام الديني، وان مشروعه آلي إلى درجة مفزعة.

فأنت ترى أمثال هؤلاء يقولون إن التطور أو الانتقاء يفعل كذا وكذا، ويضعونه بذلك في موضع الخالق سبحانه. هذا مع أن وصف الطريقة التي تحدث بها الأشياء لا يتنافى مع وجود خالق لها يحدثها، ويطورها بتلك الطريقة.

فنحن يمكن أن نصف الطريقة التي يتطور فيها الإنسان منذ أن كان جنيناً في بطن أمه إلى أن يخرج طفلاً فينمو شاباً فيصير شيخاً، ولا نجد في هذا ما يتعارض مع إيماننا بأن الله - تعالى - هو الذي خلق هذه الأطوار كلها. فالله - تعالى - يقول:

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾

[الزمر : ٦]

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾

[نوح : ١٣، ١٤]

فليس هنالك - من حيث المبدأ - تناقض بين التطور وبين الخلق إلا إذا فهم الخلق - كما يفهمه بعض النصارى- بأنه شيء يحدث مرة واحدة. وأما الخلق بهذا المفهوم الإسلامي الذي نجده في القرآن الكريم فليس فيه ما يتنافى مع القول بأن الكائنات تمر بأطوار؛ لأن الله - تعالى - هو الذي يخلق هذه الأطوار طوراً بعد طور. لكن أرجو ألا يفهم القارئ من هذا أنني أدافع هنا عن نظرية دارون، فأنا أميز - وأرجو من قرائي المؤمنين أن يميزوا- بين التطور وبين النظريات التي تشرح كيفية التطور.

إن التطور حقيقة في كل ما نشاهده أمامنا من خلق ربنا، لكن الكيفية التي يحدث بها هذا التطور ليست أمراً مشاهداً لنا؛ فما أخبرنا ربنا به - كخلق آدم – قلنا به واعتقدناه حقاً، وما لم يخبرنا به فمثلنا فيه كمثل غيرنا: نقبل من نظرياته ما كان أقوى دليلاً.

لا يستغربن القارئ قولي عمَّن يُسمَّون بالملحدين إنهم مشركون؛ فإن الشرك إنما هو نقيض التوحيد. والتوحيد الواجب على العباد لا يتم إلا بأمور ثلاثة:

**أولها:** أن يعتقد الإنسان أن الله – تعالى – هو الرب الخالق البارئ المصور إلى آخر صفات الربوبية، أي أن يعتقد أن هنالك أفعالاً لا يفعلها ولا يستطيع فعلها إلا الله تعالى.

**وثانيها:** أن يعتقد أن هذا الرب – سبحانه – هو وحده المتصف بكل صفات الكمال؛ فلا يضيف إليه صفة نقص ولا يسلبه صفة كمال، ولا يصف غيره بصفة من هذه الصفات.

**والثالث:** أن يعتقد أن هذا الرب هو وحده الإله الذي يستحق العبادة؛ فلا يعبد معه غيره.

والأول هو أساس في الأمرين التاليين؛ لأن الإنسان لا يصف الله بصفات الكمال، ولا يراه مستحقاً للعبادة إلا إذا علم أنه وحده المتصف بصفات الربوبية تلك؛ ولذلك تجد القرآن يجعل هذه الحقيقة أساساً في دعوته للمشركين -الذين يسلمون بها - إلى عبادة الله وحده، وعدم وصفه بما لا يليق به، أو وصف غيره بشيء من صفاته.

وإذن فالذي يعتقد في وجود خالق غير الله، أو الذي يصف مخلوقاً من مخلوقات الله ببعض صفات الله - تعالى- هو مشرك بالله، سواء اعتقد أن الله - تعالى - هو أيضاً خالق أو لم يعتقد ذلك.

لكن هؤلاء الذين أنكروا وجود الخالق الحق، وإن كانوا قلة شاذة، إلا أن بعضهم قد يكون مؤثراً في الناس فيثير الشكوك في نفوسهم حتى بالنسبة لهذا الأمر البَدَهي.

ولذلك لم يهمل القرآن الكريم ذكر هذا الصنف من الناس والرد على شبهاتهم. رد على الذين زعموا أنه لا خالق البتة، كما رد على الذين اتخذوا خالقين غير الله الخالق الحق، وأبان لهم أنهم لا يمكن أن يكونوا خالقين حقاً.

# مشاعرها والأمومة..
# ومكانتها في الإسلام

بقلم أميرة الجلباب

**الإسلام رحمة عامة..**

**ومنه علمنا بوجود نفحة من رحمات الله تعالى تسري في أرجاء الكون..**

**جزء واحد من مائة ورغم ذلك وسع كل شيء في الدنيا..**

**وكان لكل نصيب..**

كم نال قلب هذه القطة من هذا يا ترى؟..

سؤال طاف بي وأنا أتأمل قطتي التي وضعت صغارها منذ أيام..

أنظر إليها وهي متكئة في اطمئنان وهم حولها.. صغار بريئون متدثرون بدفء أمهم وبين ثنايا عطفها!.. يا لجمال المنظر!

لا أدري لماذا خطر لي خاطر سرعان ما وجدته قد خرج إلى حيز التنفيذ ..

خطر لي أن أختبر هذه القطة في أمومتها!!.. ورحمتها بولدها.. بأن أنتزع أحدهم منها لأرى ماذا تفعل!

لا أحب القسوة.. وأعرف أنه عمل يُكدّر جمال الصورة التي أرى .. ولكن..

أحب أن أكتشف هذا بنفسي.. وألمس بيدي وأرى بعيني!

هكذا سولت لي نفسي!

اقتربت من القطة.. وببطء مددت يدي نحو صغير لها.. وهي تنظر.. وبهدوء كان في كفي قد استقر الدعيميص الصغير.. وهو أعزل ضعيف!

حقيقةً القطةُ لم تنزعج فيما بدا لي بادئ الأمر، ربما لأنها ألفتني، وربما لأني حرصت أن أكون لطيفة جدًا مع ولدها..

بدأت أرفع كفي وأحركه.. وعيناي تسجلان حركاتها وانفعالاتها..

أولا تغيرَت جلستها.. كأنها أحست في الأمر ريبة!

يدي تبتعد شيئًا فشيئًا.. ومعي فلذة كبدها..

وفي لحظة ما بدا لي أنها مثّلت عندها منحنى الخطر؛ قامت القطة متوجهة بجسدها كله في اتجاه واحد نحو ولدها.. وعيناها معلقتان تمامًا به.. وأطلقت مواءً غريبًا متلهفًا.. لسان حالها: ولدي أين تذهبون به؟!

يا لسخافتي عندما صرخَتْ في وجهي معلنة بقوة عن هذا الشعور الملتحم بقلب الأم، وهذه الغريزة المستكنة، وهذا القبس من الرحمة الذي وسع رغم جزئيته أجزاء العالم كله وحنايا القلوب..

أو ليس حقيق بهذه الأمومة أن تصان وتحترم، ولا تُهان أو تمتهن؟!..

بيدَ أن للإسلام هنا شأن آخر.. وأمرٌ أرفع من هذا وأرقى بكثير !

## ﴿ من فجع هذه بولدها ؟ ! ! ﴾
## في من قيلت . . ومن الذي قالها ؟

عن ابن مسعود ﷺ ، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة (أي: طائر) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة تعرش (أي: تحوم وتضطرب)، فجاء النبي ﷺ فقال: ﴿ LJdž yŋ5 ljRNj GNjþ!Ăh GNjþ!Ă ƒĂþƧ ..!þ GNjþ!Ăh ljRNj yŋ5 LJdž ﴾[١].

كم يقِف القلم هنا مشدوهًا من روعة ما يرى!

﴿ Gnjŏ!ǫ GNjþ!Ă ƒĂþƧ ..!þ GNjþ!Ăh ljRNj yŋ5 LJdž ﴾ !!

يا لها من رحمات تلو رحمات.. من قلب رحيم..

قد ترى إنسانًا يتعاطف مع صبي صغير تائه في الطريق، ثم يأخذ بيده ليرشده إلى أمه..

أو ترى أمًا تصيح بحثًا عن ولدها الذي ضاع منها في الزحام، فترحمها أنت وترجو لها أن تعثر عليه بسرعة لينطفئ لهيب قلبها..

هذا كله أمرٌ واردٌ بكثرة.. وشأنٌ مألوف!

لكن أن ترى القائد الأعلى للجيش أو رئيس دولة.. يستوقفه طائر صغير يرتعش.. يرفرف بجناحيه ويضطرب.. فيمنحه نظرة.. من تواضعها اتجهت إلى الأرض!.. فيستوعب بها ما حلَّ بهذا الفرخ المسكين.. ويتجاوب مع هذه الروح المتألمة.. ويفهم عنه شكواه المبهمة.. بل ويدرك أبعاد الفاجعة التي نزلت بقلبه فزلزلت كيانه هذا الزلزال الرهيب..

فلا يصبر هذا القائد إلا أن يصدر توجيهًا فوريًا بوقف هذا الوضع القاسي، ورفع هذا الألم عن الفرخ الصغير..

فأنت هنا أمام محمد نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم!..

الرحمة المهداة للعالمين !

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

[الأنبياء ١٠٧]

﴿ LJdž yŋ5 ljRNj GNjþ!Ăh GNjþ!Ă ƒĂþƧ ..!þ ! ﴾ ..

يا لها من كلمة تشرئب لها عبَرات العالَم المكلوم من خلف قضبان الحصار والاختناق!

﴿ !Þ ĠNjþ!Ăʰ ljĸNj yϱ5 LJdž ﴾ ..

كلمات يؤول الاستغراق في تأملها إلى إحساس داخلي بالغصة والمرارة والألم، عندما تستحضر بجانبها واقع القسوة والظلم، فينفطر القلب حنينًا وشوقًا إلى هذا النبع الفياض بالرحمة والحنان الذي ضيّعه العالَم جهلاً منه وحمقًا وضلالاً.

كم خسر العالَم بالبعد عن هذا الدين؟!

﴿ !Þ ĠNjþ!Ăʰ ljĸNj yϱ5 LJdž ﴾ ..

إيه يا رسول الله.. أشَعرت أن هذا المخلوق الضعيف (أمٌّ) ؟! .. وأن لها ولد؟! .. وأنها فجعت لأن ولدها أُخذ منها.. أي روح شفيفة هذه، وحياة قلب وشفقة؟!.. وهل قلوب الطيور تفجع؟!.. أي حس رقيق هذا، وأي رحمة فياضة وحب للخير يحمله الإسلام للعالمين!

ويعلمه لأتباع هذا الدين العظيم!

﴿ !Þ ĠNjþ!Ăʰ ljĸNj yϱ5 LJdž ﴾ ..

صوت يدوي صداه في أركان الضمير، ويهز أوتار العاطفة في القلب، فيصحو على لحنها من رقاده.. وينفض عنه ركام الغلظة المتراكمة من غفلة طال عليها الأمد.. أو من كثرة تلبس بالمنطق الجامد أو ملازمة عالم الماديات البارد!

وأي قيمة "مادية" تعود علينا نحن البشر من هذا التوجيه؟

لا شيء..

وماذا يضرنا أن تفجع هذه أو لا تفجع.. بل وماذا يضرنا لو فُجعت كل إناث الطير؟!

"ماديًا" لا شيء!

ولكن "عند الله تعالى .." كل شيء!

وهل ثمت شيء أهم من أن يكون لك قلب إنسان.. وفي جوفك قلب حي؟!

هذا هو الإسلام.. قبل أن تنبُت المنظمات الحقوقية للمرأة أو للإنسان بل والحيوان..

إنه رقي بالمشاعر الإنسانية نحو القمة التي ليس وراءها شيء إلا ذلك النور الذي يحدوها إلى الدين الحق.

لا يكتفي الإسلام من الإنسان بمجرد الإحساس بجنسه لأنه حينئذ يكون ناشزًا عن الطبيعة والحياة..

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

[الأنعام ٣٨]

لا تقف رحمة الإسلام عند الأناسي من الخلق، ولا يحكمها انحياز الإنسان لنفسه أو اعتداده بلونه أو عرقه، وإنما تتعداها إلى المجال الواسع الفسيح الذي يشمل كل الأحياء في الكون

ولا تقف رحمة الإسلام عند الأناسي من الخلق، ولا يحكمها انحياز الإنسان لنفسه أو اعتداده بلونه أو عرقه، وإنما تتعداها إلى المجال الواسع الفسيح الذي يشمل كل الأحياء في الكون.

الإسلام وهو الحياة في أعلى آفاقها يريد أن يكون الإنسان منسجمًا مع الكون، واصلا إلى الحياة الحق، ملتقيًا معها في كل اتجاه.

ويريد أن ترتفع درجة استشعار قلبك تجاه كل ذرات الوجود حولك، وأن تستحضر أثناء تعاملك معها وجود الله تعالى ولابد، وليلازمك ذلك في أعماق الضمير.

ولم ينضب معين هذا التوجيه الجليل بعد، بل من فضل فيضه بيانٌ كأنه السِحر اللطيف، إنها نظرة الإسلام الراقية تجاه الأمومة، وصورته الخلابة عندما اعتنى بمشاعر الأم مهما كان نوعها في الوجود !!

﴿ Gnjŏ!ę ĠNjþ!Ă ƒĂþƧ Þ ĠNjþ!Ău ljRNj yϱ5 LJdž ﴾ !!

عزيزتي الأم.. ليس هذا بندًا من البنود، أو توصية من توصيات مؤتمرات حقوق المرأة ومنظماتها الدولية.. عندما تنصب المجازر للمسلمين!

للأسف هو ليس كذلك..

لا لشيء سِوى لأنه سقط من أوراقهم المكتظة بالبنود الحقدية، التي عَميت إلا عن البنود الانتقائية المختارة، وما لم ينزل الله به سلطانًا..

سقط منهم كما يسقط من السفيه ما جعل الله له قيامًا!

## أجِلُوا العمل حتى تَفْرَخَ وتطير!

يذكر المؤرخون أن حمامة باضت فوق فسطاط عمرو بن العاص ﷺ الصحابي والقائد المسلم الذي فتح مصر، فلما عزم على المسير إلى الإسكندرية أمر عماله أن يخلعوا الفسطاط، فلفت أنظارهم عش حمامة فيه بيض لم يفرخ بعد..

فماذا فعل المسلمون؟

لم يُزْعِجُوا الحمامة، ولم ينتهكوا حرمة جوارها!

بل أوقفوا العمل، وذهبوا إلى عمرو ﷺ يعرضون عليه الأمر، ويأخذون رأيه فيها، فقال:

﴿ لا تُزْعِجُوا طائرًا نزل بجوارنا، وحلَّ آمنًا في رحالنا، أجِّلُوا العمل حتى تَفْرُخَ وتطير ﴾

حتى أمهات الطير تنعم في ظل الإسلام بكل دلال!

وهذا نص الخبر كما جاء في "**نزهة المشتاق**":

﴿ ويقال إنما سميت بالفسطاط لأن عمرو بن العاص لما استفتح مصر وأراد المسير إلى الإسكندرية أمر بالفسطاط أن يحط ويسار به أمامه، فنزلت حمامة في أعلاه وباضت بيضتها فأخبر بذلك عمرو، فأمر أن يترك الفسطاط على حاله إلى أن تخلص الحمامة فرخيها، وقال: (والله ما كنا لنسيء لمن ألفنا واطمأن بجانبنا حتى نفجع هذه الحمامة بكسر بيضها)، فترك الفسطاط وأقام بمصر إلى أن تخلص فرخ الحمامة ثم ارتحل ﴾[٢].

كم كان بيض الحمام محظوظًا في هذا الزمان!

فهل حظيت الأمومة في عالمنا اليوم بما كانت تحظى به في زمن عمرو ﷺ وأرضاه، وزمان المسلمين الأوْل؟!

وإذا كانت تلك رحمة الإسلام بأمهات الطير والحيوان؛ فكيف رحمته ورأفته بعواطف الإنسان؟ وكيف هي مراعاته لمشاعر الأمهات؟.. إنها - ولا ريب- ترتفع إلى ما يشبه التقديس، لما يليق بمنزلة بني آدم، ولما نال من تكريم في السماوات العلى.

عن أنس بن مالك قال: قال ﷺ :

﴿ ÜĠnjk!ĠƠę þŏƧD ĠĻþĂ ÜlŭŢ!ƒ Ŏ5 ýPþÜ ŎĻę ÜŎkŭŢ Ŏ5 ƨĂnķa5 ÜŎhŢ!ƒ CĠ‡h yǎžʅa5 NJFĠ‡h LJdž NJdžD þηĂ IþT LJdž DžŽZD ĠdžDž ﴾[٣].

# ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾

كم هو غاليًا ألا تحزن، وأن تقر عينها في الإسلام!

رائعة هي درجة الإحساس في هذا الدين حين تصل إلى هذا المستوى الراقي من احترام مشاعر المرأة وتقدير أحاسيسها، والتوقف عندها، إلى حد ذكرها بالدقة والتفصيل!..

ألهذه الدرجة من الرعاية والاعتبار يصل الأمر إلى تسجيل أدق عواطفها وأحاسيسها في كتاب المسلمين؟.. ثم ليتلوها المتعبدون في صلواتهم ليل نهار.. وإلى آخر الزمان!

أيّ اعتراف بكيانها الإنساني هذا؟!..

وأين هذا مما تتشدق به حقوق الأمومة والطفولة على الأوراق!

هذه أم نبي الله تعالى موسى عليه السلام..

يصور لنا القرآن الكريم مشاعر الأم التي تلقي وليدها في اليم بيديها لما خافت عليه؛ بوحي من الله، ولأنها لم تجد له منجاة إلا من هذا الطريق!..

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

[القصص ٧]

ولأن الله تعالى برحمته لا ينسى أحدًا، ولأن ما فعلته أمر عظيم على قلبها لا يستقيم مع عطف الأم وحنانها الفطري، فإنه سبحانه وتعالى يواسيها مباشرة في نفسها مرتين.. ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾، ويبشرها في ولدها ببشارتين عظيمتين.. ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾..

ثم يصور لنا كيف حال قلبها بعد أن ألقته تصويرًا دقيقًا بليغًا.. تكاد تشعر به لتشاركها في مصابها..

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[القصص ١٠]

أي كرامة إنسانية حظيت بها المرأة عندما يعتني رب الكون سبحانه بمشاعرها إلى هذه الدرجة العالية فيذكرها في آياته الكريمة، لتلتفت الأنظار نحوها، ويتمهل الفكر عندها، ولتتأمل الروح وهي خاشعة، وتتلوها النفس في محرابها، متدبرة في العظمة وسمو المعنى الذي تحمله..

وتتابع الأحداث وتتوالى الصور سريعًا.. ثم يتحقق الوعد الذي وُعدت به..

قال تعالى:

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[القصص ١٣]

لكن هل يمكن أن تمضي الأحداث هكذا على الأماكن والأشخاص، وتمر القصة بقلب هذه الأم مرورًا كريمًا، دون أن تصف لنا ما يحدث في نفسها؟!

كلا!

﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾..

عندما يسجل الإسلام في دستوره العظيم رعايته اللطيفة لهذه الأم متمثلة في أهمية أن تقر عينها ويطمئن قلبها على ولدها، وضرورة ألا تحزن، فإنه يقول للعالمين في لفتة رقراقة بديعة: قف! .. هنا مشاعر (أمٍّ) لا ينبغي أن تهان أو يداس طرفها أو تمس بسوء، ولا يمكن أن تمرَّ أحداث القصة دون أن تُذكر مشاعرها للناس بالتفصيل، وليتعلموا، فهذا مما لا يجوز التغافل عنه أبدا!

بل ينبغي أن تشعُر أنت بما شعرت هي، ولتشاركها في مصابها، فلا يصح أن تتركها تعاني وحدها!

هل مشاعرها معتبرة لهذا الحد؟.. هل كان لازمًا أن تحظى بهذا الاهتمام العالي، والذكر الجميل؟!..

يا الله ..

أي كرامة إنسانية حظيت بها المرأة عندما يعتني رب الكون سبحانه بمشاعرها إلى هذه الدرجة العالية فيذكرها في آياته الكريمة، لتلتفت الأنظار نحوها، ويتمهل الفكر عندها، ولتتأمل الروح وهي خاشعة، وتتلوها النفس في محرابها، متدبرة في العظمة وسمو المعنى الذي تحمله..

لترى كيف رُفعت مشاعر الأم على طبقات الإعزاز في ديننا، مكللة بأسمى آيات التبجيل والاحترام..

لترى كيف قد صيغت مشاعرها في آي القرآن دررًا، تتلى آناء الليل وأطراف النهار، لتكررها مرارًا ألسنة المتهجدين، ولتكون نبراسًا في محراب الإنسانية للمنقطعين!

ثم تتكرر الالتفاتة الجميلة نفسها في سياق آخر أشد تتابعًا وحشدًا للأحداث، ورغم ذلك تبرز الالتفاتة في وسطه، باللفظ نفسه، مثل اللؤلؤة، لتبرِز المعنى بقوة وتؤكده!

قال تعالى:

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾

[طه ٤٠]

﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾..

وكأنها تقول للإنسان: مهما تكاثرت الأمور وتزاحمت عليك الأحداث فإن (مشاعرها) لابد أن تبقى معززة مكرمة لا تمس بسوء، وأن تُذكر في موقعها وتراعى في موضعها مهما كان!

وكأنها تقول للعالم أجمع: في هذا الموضع (منزلة أم).. فاحذر أن تدوس لها طرفًا!

انتبه!.. هنا (مشاعر أم).. يجب أن تحظى عندك وفي قاموس اهتماماتك بالقدر نفسِه الذي حظيت به في كتاب رب العالمين.. إياك أن تغفل فتطأها بغير أن تشعر.. إياك أن تؤذيها أو تهينها أو تضعها بعد أن رفعها رب العالمين عاليًا وأعلى ذكرها.

ها هي مشاعر أم موسى عليهما السلام - نبي بني إسرائيل - يعظمها القرآن ويراعيها ويكللها بأسمى الجواهر والحُلل؛ فماذا فعل بنو إسرائيل اليوم بالأمهات وذوات الأحمال والأطفال، وكيف ردوا الجميل؟

ما منزلة الأمومة عندهم، وما منزلتها عند مَن شاهدهم مِن منظمات حقوق الإنسان؟!

هذه منزلتها عندنا، فكيف كان المقابل عندهم؟

## ولم يزل واقفاً حتى أحضروا لها ولدها !

وبضدها تتضح الصور!

صورة من صميم التاريخ: السلطان المسلم، والملك الناصر، رافع علم العدل والإحسان، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين، خادم الحرمين الشريفين، أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي المعروف بصلاح الدين الأيوبي رحمه الله وطيب ثراه، تلجأ إليه أمٌ نصرانية، جاءت بلاد المسلمين مع الصليبيين الغزاة، تشكو إليه الفجيعة في ولدها الذي أسره بعض المسلمين.. فماذا فعل؟

تلميذ في مدرسة محمد ﷺ، مدرسة كل تلاميذها معلمون عظماء!

يذكر لنا المؤرخ الذي كان ملازمًا لصلاح الدين الأيوبي[٤]، هذه القصة التي مفادها أن أحد المسلمين اقتحم خيمة للصليبيين واختطف منها طفلاً إفرنجيا رضيعًا عمره ثلاثة أشهر, ولمَّا فقدته أمه باتت طوال الليل تستغيث فنصحها الأمراء الصليبيون بالخروج إلى معسكر صلاح الدين وقالوا لها: إنه ذو قلب رحيم ولن يرد طلبها!

وبالفعل خرجت المرأة الإفرنجية ووصلت إلى صلاح الدين وبكت بكاء شديدًا, فسأل عن قصتها, فأخبروه فرقَّ لها ودمعت عينُه، وأمر بالبحث عن الطفل وإحضاره فورا..

وظل صلاح الدين واقفا حتى أحضر الطفل وسُلّم إلى أمه، وأرضعته، ثم أمر صلاح الدين أن تحمل على فرس وتلحق بعسكر الإفرنج مع طفلها, وسط إعجاب الناس ودهشتهم وذهولهم مما جرى!

هؤلاء أتباع محمد ﷺ وتلاميذه وهم على الحقيقة أتباع الأنبياء، وليس غيرهم، هذا الدين الذي رباهم وسقى فيهم شجرة الرحمة حتى أثمرت هذا البعد الراقي في التعامل والمراعاة لمشاعر الأم من كل لون ودين.

هذا هو الدين العظيم الذي يراعي مشاعر الأم حتى لو كانت على غير ملة الإسلام، ونَهَى في أوج اشتعال الحروب عن قتل الأطفال والنساء غير المحاربين[٥].

> إن الإسلام هو الدين الحق الذي عرَّى المنظمات الإنسانية، والجمعيات الحقوقية، وجردها من شعاراتها الزائفة، تلك الشعارات التي وقفت عاجزة حتى تمرغت الطفولة البريئة في دمائها الزكية, وقُتل الإنسان بأبشع الآلات والأسلحة المدمرة، ولم تغن عنه شيئًا.

ومن تأمل هذه الصور الراقية التي تناول بها الإسلام مشاعر الأمومة، ليجد فيها من لطف الإشارة ورقة المعنى، ما يكشف بهتان الدعاوي المغرضة التي يلقيها بعض الذين لا ينفكون عن اتهام الدين الإسلامي

-ظلمًا وعدوانًا- بأنه الدين الذي يحتقر مشاعر المرأة ولا يراعي خاطرها، أو لا يبالي بأحاسيسها وعواطفها، ويتهمونه بالقسوة والقهر لآدميتها، لا شك أن في هذه الصور من رقي المعنى ولطيف المغزى، ما يرد هذه الافتراءات البيّن عورها، ويجتثها من جذورها، ويدحضها في مهدها، إذ أنها تُهم بلا بينه، لم تصدر عن منطق أو دليل، بل عن كره أعمى، وحقد وانغلاق، وجهل مطبق، فهل يصح أن يجتمع ما يدعونه من غلظة وفظاظة وقسوة تجاه مشاعر المرأة، مع هذا الحس الراقي واللطف المتناهي، والرفق الجميل، مع مشاعر الأم، في دين واحد؟!

لا شك أن هذا في ميزان العقل لا يستقيم!

يتجلى الدين الإسلامي بين ديانات الأرض ومذاهبها المشتتة في أبهى صورة وأجملها وأرقها وأكثرها حسنًا وروعة.

إنه الدين الحق الذي عرَّى المنظمات الإنسانية, والجمعيات الحقوقية, وجردها من شعاراتها الزائفة، تلك الشعارات التي وقفت عاجزة حتى تمرغت الطفولة البريئة في دمائها الزكية, وقُتل الإنسان بأبشع الآلات والأسلحة المدمرة، ولم تغن عنه شيئًا.

كم هو بحاجة هذا العالم اليوم إلى قبس من نور الإسلام ليضيء له الطريق ويبدد ظلمة القلوب وقسوتها..

ليس أدل على رُقيِّ هذا الدين وجدارته واستحقاقه لقيادة العالَم، مِن سُمُو النَّزعة الإنْسَانية في أفراده سموًا يفيض بالخير والبر والرحمة على الناس كافَّة، بل على كلِّ مَن يعيش على الأرض من إنسان وحيوان وجماد، وليس أدل على صحة نسبته إلى السماء، وربانية مصدره، من سمو تشريعاته وتوجيهاته وقيمه، ورقي أخلاقه ومثله، وبهذا المقياس تخلد حضارات الأمم، وبآثارها في هذا المضمار تتفاضل مدنياتها ومناهجها، وتتبناها القلوب والعقول، وبهذا المقياس يستحق الإسلام وحده قيادة العالم وبسط النفوذ على الأرض.

## الهامش:

[ ١ ] رواه أبو داود (٢٦٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٢٥)،والصحيحة (٢٥)(٤٨٧).

[ ٢ ] نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، الإدريسي، الإقليم الثالث - الجزء الرابع.
وجاء الخبر أيضًا في: "فتوح مصر وأخبارها"، لابن عبد الحكم، قال: (حدثنا أبي عبد الله بن عبد الحكم وسعيد بن عفير أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بها من الروم أمر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمام قد فرخ، فقال عمرو بن العاص: (لقد تحرم منا بمتحرم)، فأمر به، فأقر كما هو، وأوصى به صاحب القصر).
وهو أيضا في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري بردي، وفي "التنبيه والإشراف" للمسعودي.
وفي "المنتظم في التاريخ"، أبو الفرج ابن الجوزي، الجزء الرابع:
(وقال أبو عمر محمد بن يوسف التجيبي: قال سعيد بن عفير عن أشياخه: لما جاز المسلمون الحصن يعني حصن مصر أجمع عمرو على المسير إلى الإسكندرية فسار إليها في ربيع الأول سنة عشرين وأمر بفسطاطه أن يقوَّض فإذا بحمامة وقد باضت في أعلاه فقال: (لقد تحرمت بجوارنا أقرّوها الفسطاط حتى تطير فراخها)، فأقروا الفسطاط ووكل به أن لا تهاج حتى تشتد فراخها فبذلك سُميت الفسطاط فسطاطًا).

[ ٣ ] رواه البخاري (٦٧٧).

[ ٤ ] يقول "ابن شداد" في كتابه "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" أو "سيرة صلاح الدين":
(ذكر قصة الرضيع:
وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم الرجال وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر وساروا به حتى أتوا إلى خيمة السلطان وعرضوه عليه وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ويعطيهم ما أخذوه ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها إلى ملوكهم فقالوا إنه رحيم القلب وقد أذنا لك بالخروج فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك فخرجت تستغيث إلى اليزك فأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان فلقيته وهو راكب وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم فبكت بكاءً شديداً ومرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه فرقّ لها ودمعت عينه وأمر بإحضار الرضيع فوجدوه قد بيع في السوق فارتده وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منه ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل وسلم إليها فأخذته وبكت بكاءً شديداً وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم مع طفلها فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر اللهم إنك خلقته رحيماً فارحمه رحمة واسعة من عندك يا ذا الجلال والإكرام وانظر إلى شهادة الأعداء له بالرأفة والكرم).

[ ٥ ] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان) رواه البخاري (٢٨٥٢)، ومسلم (١٧٤٤).

عن وهب بن منبه، قال:

احفظوا عنيَ ثلاثاً: إيّاكم وهوى مُتَّبعاً، وقرين سَوء، وإعجابَ المرء بنفسه.

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء
للإمام الذهبي
الجزء الأول/ ص ٤٤٢

عن بَجير بن سعد، سَمعتُ خالد بن معدان يقول:

من التمسَ المحامد في مخالفة الحقّ، ردَّ الله تلك المَحامد عليه ذمّا، ومن اجترأ على المَلاوم في مُوافقة الحق، رد الله تلك الملاوم عليه حَمداً.

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء
للإمام الذهبي
الجزء الأول/ ص ٤٤٠

عن وهَب بن منبه:

المؤمن ينظرُ ليعلمَ، ويتكلّم ليفهمَ ويسكتُ ليسلمَ، ويخلو ليغنم.

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء
للإمام الذهبي
الجزء الأول/ ص ٤٤٢

# حوار موحد وملحد

بقلم الأستاذ أبي الفداء

المسلم: كيف يجيبك داروين أيها الملحدُ عن هذا السؤال: لماذا نحن هنا؟

الملحد: نحن هنا لنحفظَ الجيناتِ التي نحملُها بالتكاثر والتناسل!

المسلم: مع أن في هذا قلبًا للمنطق، لأن العقلَ يقول أن الجينات وجدت لتحفظ بقاءنا، لا العكس، ولكن تنزلا أواصل السؤال وأقول أنت لم تجب بعد!

لِمَ تحفظ الجينات بقاءَها؟ وما الغايةُ من ذلك؟

الملحد: لا شيء، هكذا اتفق، وهكذا كان نتاجَ تراكمات من الصدف عبر بلايين السنين! والجيناتُ لم توجدْ لتحفظ بقاءنا، ولا وُجِدنا نحن لنحفظها، إنما هو نظام متشابك يحافظ بعضه على بعض!

المسلم: أحسنت! وألزمك بقولك «يحافظ» هذه لأنني سألجأُ إليها للكلام عنها لاحقا..

ولكن أقولُ أن هذا الذي ذكرتَه من حفظ الجينات للنوع، وأن تناسلَ النوع يُبقي الجينات، قد يجيبك عن «كيف كان هذا ولكنه لا يجيبك على «لماذا كان؟» فضلا عن: «لماذا بدأ وبقي حتى وصل إلى ما وصل إليه»!

الملحد غاضبا: أنت ما تريد إلا أن تخرج بي من دائرة العلم إلى دائرة الفلسفة والكهانة!

المسلم: أبدا! إنما أريد أن أخرج بك من دائرة التقليد والانحصار في دائرة فكرة داروين، إلى مجال التأمل العقلي الأوسع والأعمق دون تقيُّد بنظرية بعينها أو فلسفةٍ بذاتها! سَمِّها ما شئت، ولكن تأمل فيها أولا!

تقول أن الجينات هي التي «تريد» حفظ النوع؟ إذن فهي عاقلةٌ ذات إرادة

وغاية من أجلها يعمل كل شيء على نحو ما نرى! أليس كذلك؟

الملحد: ليس كذلك! وهي لا «تريد» لأنها جمادٌ لا يعقل، إنما هي نظام نشأ اتفاقًا عبر بلايين السنين دون مُنشئ، فمضى على نحو ما نرى!

المسلم: إن كان قد نشأ صدفة واتفاقا، والأصل هو الصدفةُ المحضة، فلا فرق بين بليون سنة وبين دقيقة واحدة! فالعقل يحتم أن ما نشأ صدفةً فانه يَهلك صدفة واتفاقا كذلك، وإن كانت الفرصة عبر ملايين السنين تزداد لتراكُمِ معطياتٍ تفاعليةٍ تزيد النظام تعقيدا، فإنه في المقابل يحتم أن تزداد الفرصة كذلك لحدوث صدفة ناسفة تهدمه وتشتته وتحوله إلى خلاف ما تتوقع أنت منه!! وهكذا كلما طال الزمان تساوت كفة الفرص والاحتمالات على شتى المستويات! فلماذا حصرتَها أنت في طريق الاحتمالات المؤدية في النهاية إلى هذه الصورةِ المنظمة الدقيقة البديعة التي نراها؟؟؟

إن أنشأتْ الصدفةُ شيئا ربما يصلح لأن يكون خلية أُحادية فلماذا تبقى تلك الخليةُ أصلا؟ وما الذي يُبقيها ويَحملُها على مواصلة العمل؟ ولماذا يحافظُ نظامُ الكون عليها، حتى تتوفر لها الظروف لتكون خلية مركبة؟!! لماذا لا تأتي صدفةٌ أخرى تُهلكُها وتشتتُها وتنشئُ شيئا آخر؟ أو لا تنشئ ولا تسمح أصلا بذلك وتُدمرُ المجالَ الذي يتوقع منه النشأةُ الأولى تدميرا؟ أليست هذه فرصة مكافئة أيضا؟

فهذه الحتميةُ في التوجيه والتكوين على تصورِكم أنتم لمسارِ تطورِ الكائنات، ما الذي أَحكَمها وأزاح عنها سائر الاحتمالاتِ الهادمةِ السلبية التي زادت قوة وشدة هي الأخرى وتجاهلتموها أنتم تجاهلا؟؟؟

وما الذي منع صدفةً بعد صدفةٍ من أن تشتتها فلا تبقى مهما طال عليها الزمانُ إلا صورا لنُظمٍ فاسدةٍ تنشأُ ثم لا تلبثُ أن تبلى وينشأ غيرها أو لا ينشأُ بعدها شيء، فضلا عن أن يقالَ أنها لم تزل تمضي - صدفة بعد صدفة هكذا- من تطور إلى مزيد تطور؟

الملحد: لم أفهم!

المسلم: أعني أنه ما بين كل صدفةٍ وصدفة -تراكمت في بحر الموجوداتِ فأضافت لبِنة جديدة في إنشاء نظامِه- ما الذي منع صدفةً أخرى غيرَ مؤاتيةٍ أن تهجمَ على كل ما بُني وتُشتتَه تشتيتا؟

لا بد من مجالٍ حافظٍ يوجه المسارَ لتلك «الصدف» الكثيرةِ على مسارٍ واحدٍ «ينتقي» و«يميز» و«يرتقي» ويَجمعُ كل ذلك في حيزٍ واحدٍ ليَسمحَ له بالمضي في ذلك كله من الأساس!

لابد من نظام حاكم يؤدي بتلك الصدفِ في كل خطوةٍ مهما طال الزمانُ إلى إضافةِ لبنةٍ جديدة!! وهذا في حد ذاته يأبى العقلُ إلا أن يكون موجودا مرسوما موضوعا مسبقا من قبل أن تبدأَ أولُ خطوةٍ من خطوات تلك المصادفاتِ الكثيرةِ التي تدعون أنتم أنها أدت إلى إنشاءِ هذا النظامِ الدقيقِ المتناهي الإحكام!!

إن النموذجَ الذي تؤمنُ به أيها الملحدُ ليس نموذجَ اللاخالق، وإنما هو نموذج الخالق الفاشل! سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا!

نعم، فمهما حاولت أن تتصور بدايةً أولى فإنك لابد أن تتصور لها مجالا محكوما، يمنع مفرداتها من الهروب عن بعضها البعض، ويجبرها على التفاعل والتداخل، فكأنما هو خالق عاقل يريد ويحاولُ ولكنه بليدٌ يفشلُ كثيرا، يجربُ ويخطئ ويخبِطُ خبط عشواء لغاية يعلمُها ولكنه لا يدري كيف يصل إليها! ولكنه في النهاية ينجح، فينتقي هذا الذي نجح فيه ويَثْبُتُ النظامُ عليه، لأنه وافق غايةً كان يريدُها منه، ثم يمضي إلى محاولة لمزيد من التطوير عليه لغايةٍ أحسنَ يطمعُ فيها! وهكذا، وهو في ذلك كله يضع النُظم التي تحمي وتصون ذلك النظام، لغايةِ ونيةِ صيانةِ النظامِ نفسه! فماذا يكون كل هذا إلا صُنعَ خالقٍ عليم، شوَّهتم أنتم صورته وعلمه وأبيتم إلا أن تنسبوه إلى العشوائية، بدعوى أن تراكم العشوائية عبر الأزمنة الطوال سيُحدثُ في النهاية ولا بد نظاما معقدا؟؟؟

الملحد: لا توجد غاية ولا مخطط ولا شيء من ذلك، وليس هذا إلا ما يمليه عليك إيمانك أنت ودينك، فلا يمكنك التحرر منه!

المسلم: كلا، بل ما يُمليه عليَّ عقلي هو أني لا أستطيع أن أتصورَ بدايةً أولى لفعلِ تكوينٍ إلا بإرادة من ورائه، وغايةٍ يُراد لهذا التكوين أن يصل إليها، وإلا فما الحاكم على ذلك الفعلِ الأولِ بأنه موفقٌ وبأنه يلزمُ له فعلٌ ثانٍ، فيحافظ على الفعل الأول ثم يشرع في الفعل الثاني؟؟

فقل لي ما هو التطورُ إذن؟

الملحد: التطورُ هو المُضيُّ من خطوة إلى خطوة أعلى!

المسلم: فما مفهوم العلو أصلا؟ ومن أين يأتي ضابطُ تحديدِ أيِّ خطوةٍ هي الأعلى وأيُّها هي الأدنى لينتظم مسارٌ يتحرك النظام عليه من أدنى إلى أعلى دائما؟؟

الملحد: الكائنات تحتاج إلى الأعضاء فتنشأ تلك الأعضاءُ من أجل ذلك!

المسلم: المفروض ألا تنشأ، لأنه لا يوجدُ نظامٌ خارجيٌّ أو داخليٌّ يوجه تلك الكائنات إلى هذا!

الملحد: بل يوجد! إنها الجينات!

المسلم: فما الذي يوجه الجينات وما الغرض منها؟

الملحد: لا يوجهها شيء!!

المسلم: إذن فلن تتوجه أبدا، ولن تنتظم، لأنه لم يكن هناك إلا العشوائيةُ والصدفةُ، والصدفةُ لا تُنشئُ نظاما، وتراكُم الصدف لا يُنشئُ إلا الفوضى!!! فأينما ذهبتَ فلن تجدَ إلا كيانا نهائيا تنسبُ إليه الفعلَ والاختيار والإرادة والتنظيم والانتقاء و... فهذا أيها الملحد هو إلهك الذي تعبدُه وهو خالق النظام في عقيدتك شئتَ أم أبيت! فإن كان ربك اسمُه الجينات، فإن كان هذا المخلوق البائس هو الإلهك الذي تعبدُه وهو خالق النظام في عقيدتك، (الجينات) أو (الطبيعة) أو نحو ذلك، فربنا هو الخالق العظيم الذي علمنا أن اسمه الله، وهو ليس بمخلوق ولا يقاس على شيء من خلقه، ولا هو داخل فيما خلق، وهو – ولابد – لا تحيط به العقول ولا تتصوره! لا أول له ولا آخر، ولا حد لقدرته .. هو الذي بدأ النظامَ بإرادةٍ وعلم وإحكام، ووضع له ما يصونُه ويحفظُه، ووجَّهه على إرادته لغايةٍ هو يريدها، على مسارٍ هو أبدعه!

فالفرقُ بيني وبينك أنك ترى ما أرى ولكنك تقاتلُ من أجل إبطالِه وتكذيبِه! أما أنا فأُقِرُّ بالبيِّناتِ الظاهراتِ الواضحات الجليات، وأعلم عنها ما تأبى أنت بكِبْرِك وغرورك أن تُقِرَّ به، وبأنه هو الحقُّ ولا مفر! فأَعلمُ أن هناك ربًا وأنه حكيمٌ عليمٌ، وأن نظامَه وخلقَه الدقيقَ البديعَ المحكمَ يشهدُ له ويغني عن كل كلام!

أما هذا التصورُ المريضُ المهترئُ الذي تتمسكون به لنشأةِ الكائناتِ وأصولِها، فلا يمكنكم تصورُ بدايتِه وأصله، ولا يمكنكم تصورُ سببِه وغايتِه، ولا يمكنكم وضعه في أي إطارٍ عقليٍّ ترتاح له نفوسُكم أنه هو الغايةُ التي إليها ينتهي ويمضي!!

وفوقَ كل ذلك سيظلُ كابوسُ ما بعدَ الموت كابوسا أسود مظلما في قلوبكم يُفضي بالفرد منكم إلى هُوة الانتحارِ كلما تأمل فيه، ليمضيَ إلى الحق المحتوم الذي كذَّب به فيراه بعينيه حين لا يُجدي الندم!

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[١]

أشهدَ اللهُ آدمَ وذريتَه على أنفسهم، إشهادًا قد كان على الحقيقة، أخذَهم فما أبوا، واستنطقَهم فنطقوا، وسألهم فأقروا، وعرّفهم فصدّقوا، وكما نوقنُ بالحياة داخلَ الرحمِ وإن لم نذكرْ أحداثَها، فإننا نصدِّقُ خبر الأنبياءِ عن هذا الميثاقِ وإن لم نذكرْ تفاصيلَه، فثبت عندنا أنّا شهدنا وآباءَنا على التوحيد، فلا مجال لادعاءِ الغفلةِ عن التوحيد حيث إنه الأصل، ولا وزن لدعوى أن الآباءَ كانوا على ملةٍ باطلة؛ إذ إنهم قد اشتركوا في ذاك الاعترافِ الأوليّ.

ومن أثر هذا الميثاقِ كانت الفطرةُ الإنسانية، فليس الميثاقُ هو الفطرة، بل الفطرةُ أثرٌ للميثاق، قال **الألبانيُّ** رحمه الله وقد رفض تأويلَ الإشهادِ في الآية بأنه الفطرةُ فحسب، وعدَّ ذلك تأويلًا يُبطل معنى الآية، قال رحمه الله:

> إنه ليلوحُ لي أننا وإن كنّا لا نتذكرُ جميعًا ذلك الميثاقَ الرباني -وقد بيَّن العلماءُ سببَ ذلك- فإن الفطرةَ التي فطر اللهُ الناسَ عليها -والتي تشهدُ فعلًا بأن الله هو الربُّ وحده لا شريك له- إنما هي أثرُ ذلك الميثاق، وكأن **الحسنَ البصريّ** رحمه الله أشار إلى ذلك حين روى عن **الأسودِ بنِ سريعٍ** مرفوعًا ﴿ ألا إنها ليست نسمةٌ تولد إلا وُلدت على الفطرة ... ﴾ الحديث، قال **الحسن** عقِبه ولقد قال الله ذلك في كتابه ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ...**﴾ الآية أخرجه ابن جرير ١٥٣٥٣، ويؤيدُه أن الحسن من القائلين بأخذِ الميثاقِ الوارد في الأحاديث، كما سبقت الإشارةُ إلى ذلك، وعليه فلا يصحُّ أن يقالَ إن **الحسنَ البصريّ** مع الخلف القائلين بأن المرادَ بالإشهادِ المذكورِ في الآية إنما هو فَطْرَهم على التوحيد [٢].

ومن تأملَ شأنَ الفطرةِ وجدها تحملُ في طياتِها ما يَحمله ذلك الإشهاد، فكلاهما إشهادٌ للبشرية على التوحيد، وكلاهما مشترَكٌ بين الذرية والآباء، وفيهما إشهادٌ على النفس، وتقريرٌ أن التوحيدَ هو الأصل، وكلٌّ منهما لا يقبلُ التبديل، وفي كليهما حجةٌ -مستقلةً أو غير مستقلة- وإن كانت حجةً لا يترتبُ على مخالفتها -بمفردها- العقاب، والآياتُ القرآنية مصرِّحةٌ -بكثرة- بأن الله تعالى لا يعذبُ أحداً حتى يقيم عليه الحجةَ بإنذارِ الرسل، وهو دليلٌ على عدم الاكتفاءِ بما نصَبَ من الأدلة وما ركَز من الفطرة، فمن ذلك قولُه تعالى ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾[٣]؛ فإنه قال فيها ﴿**حتى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ ولم يقل حتى نخلُقَ عقولاً ونُنصِّبَ أدلةً ونُركزَ فطرة، ومن ذلك قولُه تعالى ﴿**رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾[٤] الآية ، فصرح بأن الذي تقوم به الحجةُ على الناس ، وينقطعُ به عذرُهم هو إنذارُ الرسل، لا نصْبُ الأدلةِ، والخلقُ على الفطرة [٥].

ولو جمعتَ بين ما مضى في المقال السابق وما مضى من هذا المقال، فقد جمعتَ بين أصل الفطرةِ ومبتداها وبين مصيرِها ومنتهاها، ومتى وُجدت وإلى أين تسير، وما تستلزمُه من الحق وما تُجتالُ إليه من الباطل، ولا يكتملُ التصورُ وتتضح الصورةُ إلا ببيان علاماتِ هذه الفطرةِ وآثارِها، أنْ قام شاهدُها في تاريخ الجنس البشري منذ فجره، وظهر أثرُها علمًا ضروريًا في عقل الإنسان وفكرِه، وإن النفسَ لتحنُّ إلى موجبِ الفطرةِ

حنينًا يزدادُ إن اشتد البأس، وإنها لأولُ السؤالِ ومنشأُ الجوابِ وغايةُ البحث، وهي معنى الأخلاقِ ووقودُها، وفيها طمأنينةُ النفسِ ونعيمُها، فإن ﴿ الله سبحانه لما كان هو الأول الذي خلق الكائناتِ، والآخِرُ الذي إليه تصيرُ الحادثاتُ، فهو الأصلُ الجامع، فالعلمُ به أصلُ كلِّ علمٍ وجامعُه، وذِكرُه أصلُ كلِّ كلامٍ وجامعُه، والعملُ له أصلُ كلِّ عملٍ وجامعه، وليس للخلق صلاحٌ إلا في معرفة ربهم وعبادتِه ﴾[٦].

ومن تأملَ شأنَ الفطرةِ وجدها تحملُ في طياتِها ما يَحمله ذلك الإشهاد، فكلاهما إشهادٌ للبشرية على التوحيد، وكلاهما مشتَرَكٌ بين الذرية والآباء، وفيهما إشهادٌ على النفس، وتقريرٌ أن التوحيدَ هو الأصل، وكلٌّ منهما لا يقبلُ التبديل، وفي كليهما حجةٌ -مستقلةً أو غير مستقلة- وإن كانت حجةً لا يترتبُ على مخالفتها -بمفردها- العقاب

## قام شاهدُها في تاريخ الجنس البشري منذ فجره!

ما السبيل في النفوذِ إلى ما كان عليه الإنسانُ الأول؟! وأنَّى لنا ذلك؟! أكان ذا دينٍ أم لم يكن؟! أكان على التوحيدِ أم كان مشركًا؟!

إنما السبيلُ هنا هي سبيلُ الوحي، وليس من يقينٍ -في ذلك- إلا من طريق العلم الإلهي، أمّا محاولةُ النفوذِ إلى واقع الإنسان الأول من غير سبيلِ الوحي، فهي خوضٌ في ﴿ أيامٍ تسبق بزمنٍ مديدٍ كلَّ سجلٍّ مكتوبٍ يُدَوِّنُ الانطباعاتِ والأفكارَ الإنسانيةَ ﴾[٧]، ولذا ليس أمام هؤلاء ﴿ سبيلٌ إلا الاستنتاجَ والتخمينَ دون غيرهما ﴾[٨]

حين يتكلمون عن معتقداتِ الإنسان الأول، وهذا كافٍ في إبطالِ أيةِ معارضةٍ لِما ثبت بالوحي، فأقصى حالِ ما معهم أن يكون ظنًّا غالبًا يواجهون به وحيًا يقينيًا، ولا يشك عاقلٌ أنَّ القطعيَّ والظنيَّ إذا تعارضا وجب تقديمُ القطعيِّ، فهذا جوابٌ مجملٌ عن كل إيرادٍ يخالف ما بلغنا بالوحي في هذه القضية.

ولقد وجد الباطلُ مرتعًا وسيعًا في عقول أقوامٍ، فأضلَّهم وأفسد بالَهم، أقوامٍ اتخذوا من عقيدة الإنسانِ الأولِ غرضًا يُرمى، ينهشونها بأنيابٍ يقطرُ منها السُّم، ويقابلونها بعداوةٍ تأجَّجُ، تستمدُّ وقودَها من أصنامِ الباطل، أصنامِ الماديةِ والداروينية ودعاةِ التحديثِ وغيرِها، فكيف يتخلى الماديون عن تفسيرِهم الماديِّ لنشأةِ العقيدة؟! وكيف يستغني الداروينيون عن وجهٍ للشبه بين جدِّهمُ الإنسانُ وجدِّهم القرد؟! وأنّى يُقِرُّ لك دعاةُ التقدم الشامل أن التوحيدَ الخالصَ الراقي هو الأصل؟! فاجتمع شتاتُ المبطلين على الطعن في عقيدة الإنسان الأول، وأثاروا حولها المزاعمَ والأباطيل!!

> **الله سبحانه لما كان هو الأول الذي خلق الكائناتِ والآخِرُ الذي إليه تصيرُ الحادثات، فهو الأصلُ الجامع، فالعلمُ به أصلُ كلِّ علم وجامعُه، وذِكرُه أصلُ كلِّ كلامٍ وجامعُه، والعملُ له أصلُ كلِّ عملٍ وجامعه، وليس للخلق صلاحٌ إلا في معرفة ربهم وعبادتِه**

زعم المعادون للوحي -أول ما زعموا- أن الإنسان الأولَ ما كان ذا دين، وهذا زعمٌ لا أساسَ له إلا حناجرُ الخرَّاصين، ولا دليلَ عليه إلا صراخُ التطوريين، وهم يأملون ذلك لغرضٍ في نفوسٍ خبيثة، غرضٍ مؤداه أن يكون جدُّهم الإنسانُ كجدِّهم القرد، كلاهما بلا دينٍ وإن افترقا في وجودِ الذيل، ويظنون أن سلوكَهم غيرَ طريقِ الوحيَ يؤهلُهم للكلام دون دليل، وما علموا أن ضعفَ الباطلِ ذاتيٌّ، فكيف إن طلعت شمسُ الحقيقة؟!

ويأتي هذا الزعمُ موافقًا لأهواءِ الماديين، إذ يقدمون -من كيسهم- تفسيرًا سخيفًا -كعادتهم- للتدين، فيرون في كل مظاهر التدينِ بما في ذلك أسمى صورِ التدينِ التي تقوم على نظرياتٍ فلسفيةٍ وأخلاقية، يرون فيها تعبيرًا عن «عجزٍ أمام الطبيعة، ذلك العجزُ الذي يتعلقُ بضعفِ الإنتاج»[٩]، فعندما يواجهون الإنسانَ الأولَ وهو الذي لا يهمه من الدنيا إلا ضرورياتُ الحياة، ولا يبالي بضعفِ الإنتاجِ أو غيرِه، كيف يكون متدينًا - فضلًا عن اعتناقِه أسمى العقائدِ - وهو لا يبالي بضعف الإنتاج؟! لابد إذن أن يجعلوه بلا دين!!

يقول **مرسيا إلياد:**

> إذا كان أهلُ العصورِ الحجريةِ قد اعتُبروا كبشرٍ كاملين، فيستتبعُ ذلك أنهم قد امتلكوا معتقداتٍ ومارسوا بعض الشعائر، لأنه -وكما ذكرنا- أن تجربة المقدسِ تشكِّلُ عنصرًا في بُنية الشعور، وبعبارةٍ أخرى إذا عرضنا مسألةَ التدين أو عدمَ التدينِ لأناسِ العصور الحجرية، فإنه يقتضي لمناصري عدم التدين تقديمَ الأدلةِ الداعمةِ لفرضيتهم،

ومن المرجح أن افتراضَ عدم التدين لأناسِ العصر الحجري قد طُرح في عهود التطورية، عندما اكتُشفت المشابهاتُ مع الرئيسيات، إلا أنه يتعلق بسوءِ فهم، لأن ما يحسب في هذه الحالة ليس هو البنيةُ التشريحيةُ العظميةُ لأُناس العصرِ الحجري -المماثلةُ بالتأكيد للبنية التشريحيةِ العظميةِ للرئيسيات- وإنما أعمالهُم، وإن هذه الأعمالُ تثبتُ النشاطَ لذكاءٍ لا يمكننا تعريفُه سوى بأنه إنساني، غير أنه إذا كان من المتفق عليه اليومَ حول واقعةِ أن أُناسِ العصر الحجري كان لديهم دين، فإن من الصعب إذا لم يكن عمليًا من المستحيل تحديدُ ماهيةِ محتوى هذا الدين»[١٠].

وثاني مزاعمِ المبطلين أن الإنسانَ الأولَ كان وثنيًا مشركًا، فهم يرون أن التوحيدَ أسمى من الشرك، والقديمَ لابد أن يكون متخلفًا عن الحديث عند دعاة التحديث لمجرد التحديث، فلابد -زعموا- أن يكون الشركُ هو الأصل، في حالةٍ من الخلط الواضح بين التطور المادي والتطورِ الروحي، هكذا دعوى لا دليلَ عليها، البراهينُ على خلافِها، ويضع **د.جلال أمين** يدَه أصل الداءِ بقوله:

> فأقصى حال ما معهم أن يكون ظنًّا غالبًا يواجهون به وحيًا يقينيًّا، ولا يشك عاقلٌ أن القطعي والظني إذا تعارضا وجب تقديمُ القطعي، فهذا جوابٌ مجملٌ عن كل إيرادٍ يخالف ما بلغنا بالوحي في هذه القضية.

«لكل عصرٍ خرافاتُه وأساطيرُه، ومن خرافات العصر الحديث فكرةُ التقدم، أي الاعتقادُ بأن التاريخَ الإنسانيَّ تاريخُ تقدمٍ متصلٍ من الأسوإ إلى الأفضل، وكأننا نرتقي درجاتِ سُلم، كلُّ درجةٍ أعلى وأفضلُ مما قبلها، إذا كان الأمرُ كذلك فالحاضرُ لابد أن يكون أفضلُ من الماضي، والمستقبلُ أفضلُ منهما جميعًا، إني لا أقصدُ باعتناقِ فكرة التقدم مجردَ الاعتقادِ بأن الإنسان يحققُ تقدمًا في أشياءَ معينة، بل الاعتقادُ بأنه يحقق تقدمًا بوجهٍ عام، وفي حياته كلها مأخوذةً ككل، والتفضيلُ العام للحاضر على الماضي، وللمستقبلِ على الحاضر، ليس في هذا الشيءِ بعينِه أو ذاك، بل بصفةٍ عامة»[١١].

إن شمسَ الحقيقةِ تشرقُ على صراطٍ مستقيم، تبرزُ على جنبيه علاماتٌ لا تتخلف، وإنك لتجدُ صبيًا أصاب من نور الوحي قليلًا ولم يُصبْ من غيره شيئًا ذا بال، تجدُه في هذه المسألة على بينةٍ ويقين، بل يَعدُّ فروعَ هذه المسألةِ من المسلمات، فهو لا يشك أن أبا البشر عليه السلام كان ديِّنًا موحدًا معلَّمًا، وظلّ التوحيدُ في بنيهِ حتى دَبَّ الخلافُ في الخلَف، ولما استحكمت الظلمةُ وعُمِّيَت الطريقُ بعث الله الرسل، قلَّما تجدُ مؤمنًا يخالفُك في هذه القضايا إلا أن يكون متأثرًا بضلالة، أو متأولًا بجهالة، بينما تجدُ كهلًا مُعرِضًا عن الوحي، وقد

شابَ شعرُه وتقوسَ ظهرُه وشدَّ أَودَه بالعصا، لا يعرفُ في هذا الأمر إلا الظنونَ المتضاربةَ واتباعَ الهوى، ولا يصحُّ له منها شيءٌ إلا ما وافقَ فيه الوحي، ولا يُسلَّمُ له بشيءٍ يَخرجُ عن مسلَّماتِ ذلك الصبي!

**فأُولى علاماتِ طريقِ الوحي** هي الجزمُ بأن أبا البشرِ كان ذا دينٍ، ولقد رأيتَ[١٢] -من غير المؤمنين- من ينقلُ الاتفاقَ على ذلك، ويُطَالِبُ المخالِفَ بالدليل لأن الأصلَ هو التدين، فالتدينُ عنصرٌ في بُنية الشعور، يقول **ابنُ تيمية** رحمه الله:

> النفس لا تخلو عن الشعور والإرادة، بل هذا الخلوُّ ممتنعٌ فيها، فإن الشعورَ والإرادةَ من لوازم حقيقتِها، ولا يُتصورُ أن تكونَ النفسُ إلا شاعرةً مريدة، ولا يجوزُ أن يقال إنها قد تخلو في حق الخالق تعالى عن الشعور بوجودِه وعدمِه، وعن محبته وعدم محبته، وحينئذٍ فلا يكونُ الإقرارُ به ومحبتُه من لوازم وجودِها، ولو لم يكن لها معارض، بل هذا باطل، وذلك أن النفسَ لها مطلوبٌ مرادٌ بضرورة فطرتِها، وكونُها مريدةً من لوازم ذاتها، لا يُتصورُ أن تكون نفسُ الإنسانِ غيرَ مُريدة، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم أصدقُ الأسماءِ حارثٌ وهمّام، وهي حيوانٌ وكل حيوانٍ متحركٌ بالإرادة، فلابد لها من حركةٍ إرادية، وإن كان كذلك فلابد لكل مريدٍ من مراد، والمراد إما أن يكونَ مرادًا لنفسه أو لغيره، والمرادُ لغيره لابد أن ينتهي إلى مرادٍ لنفسه، فيمتنعُ أن تكون جميعَ المراداتِ مراداتٍ لغيرها، فإن هذا تسلسلٌ في العلل الغائية، وهو ممتنع، كامتناعِ التسلسلِ في العلل الفاعلةِ بل أولى، وإذا كان لابد للإنسان من مرادٍ لنفسه فهذا هو الإلهُ الذي يؤلهُه القلب، فإذًا لابد لكل عبدٍ من إله، فعُلم أن العبد مفطورٌ على أن يحب إلهَه.[١٣]

**أما العلامةُ الثانيةُ** فهي أن الأصلَ هو التوحيد، وما أيسرَ إلزامَ من لم يرضَ بالوحي بذلك، ويكفينا التذكيرُ (بالأدلة العلميةِ التي ساقها **الدكتور دراز** في بحثه المبتكرِ عن الدين وهي ذاتُ ثلاثِ شُعب:

**أولها** التحليلُ النفسيُّ حيث يؤدي إلى بيان خطإ وضعِ قوى النفس المختلفةِ في حياتها الروحية والماديةِ في نموها على قدمِ المساواة معًا، لأن المشاهدةَ المتتبعةَ لمراحل حياةِ الإنسان تستخلصُ أن الإنسانَ كان في بدايتِه يقنعُ بإشباع حاجاتِه الضروريةِ من مأكلٍ ومشربٍ ومأوى، ودفعته قلةُ مشاغلِه ووفرةُ وقتِه إلى التأمل الذي يُرهف حاستَه الدينية، بينما نرى اشتغالَ الناسِ في عصور المدنياتِ بترفِ الحياةِ الجثمانيةِ يؤدي إلى العكس ذلك أن الغرائزَ المتقابلةَ تَضعفُ وتتقلص، بقدر ما تنمو وتقوى أضدادُها، ككفتي الميزان لا ترتفع إحداهما إلا انخفضت الأخرى.

**الثانية** أن استقراءَ سيرِ الدياناتِ منذ طفولةِ التاريخِ إلى اليوم يبينُ أن كلًّا منها بدأت بعقيدةِ التوحيد النقية، ثم خالطتها الأباطيل، مما يدل على أن البدايةَ خيرٌ من النهاية.

**الثالثة** إذا بحثنا الظاهرةَ في ضوءِ التطورِ الصحيح -كالفن مثلًا- نجدُ أنه يبدأ في صورةٍ ساذجةٍ متحدةٍ متجانسة، ثم تتدرجُ إلى التكثير والتركيب، وتنتقلُ من البساطة إلى التعقيد كلما بعُدتْ عن الأصل، فإذا طبقنا هذا القانونَ على العقيدةِ الإلهيةِ يستوجبُ أنها بالمثل سارت أيضًا من الوحدةِ إلى الكثرة، ومن النقاوةِ والسهولةِ واليسرِ إلى التعقدِ بالإضافة الأسطوريةِ والنزواتِ الخياليةِ التي لا ضابطَ لها من العقل السليم[١٤].

ويبرهن **ابنُ تيميةَ** رحمه الله أن الفطرةَ متوجهةٌ إلى الله تعالى وحدَه بقوله:

العبدُ مفطورٌ على أن يحبَّ إلهَه، ، ومن الممتنعِ أن يكون مفطورًا على أن يُؤلِّهَ غيرَ الله لوجوه، منها أن هذا خلافُ الواقع، ومنها أنه ليس هذا المخلوقُ بأن يكون إلهًا لكل الخلقِ بأولى من هذا، ومنها أن المشركين لم يتفقوا على إلهٍ واحد بل عبدَ كلُّ قومٍ ما استحسنوه، ومنها أن هذا المخلوقَ إن كان ميتًا فالحيُّ أولى من الميت، فيمتنعُ أن يكون الناسُ مفطورين على عبادةِ ميت، وإن كان حيًا فهو أيضًا مريد، فله إلهٌ يؤلهُه، فلو كان هذا يؤلهُ هذا، وهذا يؤلهُ هذا، لزم الدَّورُ الممتنعُ أو التسلسلُ الممتنعُ فلابد لهم كلُّهم من إلهٍ يؤلهونَه.

فإن قلت ما ذكرتَه يستلزمُ أنه لابد لكل حيٍّ من إله، أو لكل إنسانٍ من إله، لِمَ لا يجوزُ أن يكونَ مطلوبُ النفسِ مطلقُ المألوه، لا مألوهًا معينًا، وجنسُ المراد لا مرادًا معينًا؟

قيل هذا ممتنع، فإن المرادَ إما أن يُرادَ لنوعِه أو لعينه، فالأول مثل كونِ العطشانِ يريد الماءَ والسغبانُ يريد طعامًا، فإرادتُه هنا لم تتعلقْ بشيء معين، فإذا حصل عينٌ من النوع حصل مقصودُه.

والمراد لذاته لا يكون نوعًا، لأن أحد المعنَيَينِ ليس هو الآخر، فلو كان هذا مرادًا لذاتِه للزم أن لا يكونَ الآخرُ مرادًا لذاته، وإن كان المرادُ لذاته هو القدرُ المشتركُ بينهما، لزم أن يكون ما يختصُّ به أحدُهما ليس مرادًا لذاتِه، وإذا لم يكن مرادًا لذاته لزم أن يكون ما يختص به كلٌّ منهما ليس مرادًا لذاته، والكليُّ لا وجودَ له في الأعيان إلا معينًا، فإذا لم يكن في المعينات ما هو مرادٌ لذاته، فلا يكونُ فيها ما يجب أن يؤلهَه أحد، فضلًا عما يجب أن يؤلهَه كلُّ أحد.

فتبين أنه لابد من إلهٍ معين، هو المحبوبُ لذاته من كل حي، ومن الممتنعِ أن يكون هذا غيرُ الله، فلزم أن يكون هو الله، وعلم أنه لو كان فيهما آلهة إلا اللهُ لفسدتا، وأن كلَّ مولودٍ وُلد على محبة هذا الإله، ومحبتُه مستلزمةٌ لمعرفته، فعُلم أن كلَّ مولودٍ ولد على محبتِه ومعرفتِه وهو المطلوب.

وهذا الدليلُ يصلحُ ان يكون مستقلًا، وهذا بخلافِ ما يرادُ جنسُه، كالطعام والشراب، فإنه ليس في ذلك ما هو مرادٌ لذاته، بل المراد دفعُ ألمِ الجوعِ والعطشِ أو طلبُ لذةِ الأكلِ والشربِ، وهذا حاصلٌ بنوع الطعام والشراب، لا يتوقفُ على معينٍ بخلاف ما هو مرادٌ ومحبوبٌ لذاتِه فإنه لا يكون إلا معينًا ﴾[١٥].

**أما العلامةُ الثالثةُ** فهي حصيلةُ العلامتين السابقتين، فإن كان المخالفُ يلزمُه القولُ بتدَينِ الإنسانِ الأولِ وتوحيدِه، ويعجزُ العجزَ كلَّه عن التشكيك في ذلك، فضلًا عن إثبات نقيضِه، وإن كان يُقرُّ أن خبرةَ الإنسانِ الأولِ لم تكن تكفيه للوصول إلى تلك الحقائقِ الثابتةِ السامية، وأنه لم يكن من التطورِ بحيث ينتهجُ عقيدةً وديانةً يتفوقُ بها على الأساطيرِ التي اعتنقها مَن بعدَه، ويتميزُ بها عن الحيوان الذي يريدُه الداروينيون جدًّا لهم، إن تبين ذلك فإنه يتجلى لنا أن الإنسان الأولَ لم يكن إلا معلَّمًا، فإن الله تعالى علّم آدم التوحيدَ كما علمه الأسماء، وأنه لما أُهبط إلى الأرض كان عالمًا، قال تعالى ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[١٦].

فآدمُ عليه السلام قد عُلِّمَ التوحيد وعلّمه بنيه، والمخالفُ يَلزمه القولُ بذلك على منهجه، إذ ﴿ يأتي علمُ الآثار ليدعمَ نظريةَ البؤرةِ الحضارية الأولى، وانتشارَ الحضارةِ من مركزٍ واحد، في مقابل نظريةِ التطورِ المتوازي ﴾[١٧]، وظلَّ الأبناءُ على ذلك الأصلِ تعتريهمُ الغفلاتُ بين الحين والآخر، وتتراكمُ عليهم الضلالاتُ جيلًا بعد جيلٍ حتى اختلفوا، كما قال **ابنُ عباسٍ** رضي الله عنه ﴿ LJðƵ‡ ÜfÄ5ÜkPG5 Ƽo!ƒ LJdž ƚžôƵT ŤÜŽ ÐžnƤ‡ ĺĝJÄƵp ƚƵTŽ ĝƥpcÄ ĜÄlj LJðh LJG‡ ﴾[١٨]، يدعون إلى التوحيد، فلم يَخْلُ التاريخُ البشريُّ من آثار الدين، حتى صح أن يقالَ إن الإنسانَ مخلوقٌ عاملٌ وكلُّ عاملٍ عابد[١٩]، ﴿ ولا يزال الاعتقادُ القديمُ بأن الدينَ ظاهرةٌ تعم البشرَ جميعًا اعتقادًا سليمًا، وهذه في رأي الفيلسوفِ حقيقةٌ من الحقائق التاريخيةِ والنفسية ﴾[٢٠]، ولا عجب أن يستدلَّ بعضُ الفلاسفةِ على وجود الخالقِ ببرهانِ الإجماع ﴿ إذ إنه مأخوذٌ من فطرةِ الناس وإيمانِهم العامِّ الذي لا يتزعزعُ بوجود قوةٍ عظمى تسيطر على هذا الكون وتسيِّرُه طبقًا لما تريد وكيفما تشاء، وقد أخذ الفلاسفةُ من هذا الإجماع لدى الناسِ برهانًا من البراهين التي تؤكد وجودَ الإله ﴾[٢١].

فتأملْ معي الإنسانَ الأولَ موحدًا ديِّنًا معلَّمًا، تأَملْه بذكائه الإنسانيَ يصفعُ الداروينية، وبعدم مبالاتِه بضعف الإنتاجِ يُعجِز المادية، وكان موحدًا فاحتار دعاةُ التحديث وطرحِ كل قديم، هذا الإنسانُ حين خُلِيَّ وفطرتَه، ولم يتأثرْ بتقليد أبٍ أو أم، ولم يُسبَق بعاداتِ قبيلةٍ أو قوم، فقد اختار مِلةَ التوحيدِ والعبودية لله، فالفطرةُ الإنسانيةُ ليست كصفحةٍ بيضاء، وليس ميلُها للخير والشر على السواء، بل الأصلُ فيها التوجهُ إلى الخير والحق والإيمان، وأنها لو سَلمت عن عوارض السوء لاختارت ما كان عليه أولُ إنسان، واقرأ قولَ الله

فتأملْ معي الإنسانَ الأولَ موحدًا ديِّنًا معلَّمًا، تأَملْه بذكائه الإنسانيَ يصفعُ الداروينية، وبعدم مبالاتِه بضعف الإنتاجِ يُعجِز المادية، وكان موحدًا فاحتار دعاةُ "التحديث وطرحِ كل قديم"، هذا الإنسانُ حين خُلِيَّ وفطرتَه، ولم يتأثرْ بتقليد أبٍ أو أم، ولم يُسبَق بعاداتِ قبيلةٍ أو قوم، فقد اختار مِلةَ التوحيدِ والعبودية لله

## هوامش المقال

[١] سورة الأعراف ١٧٢-١٧٣.

[٢] سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، (٤ ١٦٣).

[٣] سورة الإسراء ١٥.

[٤] سورة النساء ١٦٥.

[٥] تفسير أضواء البيان، الشنقيطي، سورة الأعراف ١٧٢.

[٦] مجموع الفتاوى لابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، (٢ ١٩).

[٧] موجز تاريخ العالم، ج.هـ.ويلز، ترجمة عبد العزيز جاويد - ٥٣.

[٨] السابق.

[٩] أصول الفلسفة الماركسية، جورج بوليتزر وآخرون، تعريب شعبان بركات، ص ١٦٥.

[١٠] تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، مرسيا إلياد، ترجمة عبد الهادي عباس (١ ١٨)، ودعوى التماثل بين بنية الإنسان في العصر الحجري وبنية الرئيسيات هي دعوى لا دليل عليها إلا الاحتمالات.

[١١] خرافة التقدم والتأخر، جلال أمين، ص ٧.

[١٢] أعني كلام مرسيا إلياد الذي سبق نقله.

[١٣] درء التعارض، ابن تيمية، ( ٤ ٤٣٧-٤٣٨).

[١٤] الإسلام والأديان دراسة مقارنة، مصطفى حلمي، ٦٠ و ٦١.

[١٥] درء التعارض، ابن تيمية، ( ٤ ٤٣٨-٤٣٩).

[١٦] سورة البقرة ٣٨ - ٣٩.

[١٧] لغز عشتار، فراس السواح، ١٥ و ١٦.

[١٨] صحيح على شرط البخاري، للاستزادة انظر تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد للألباني، ص١٠١، الهامش.

[١٩] انظر ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، فصل حقيقة النفس الإنسانية.

[٢٠] تاريخ الحضارة، ول ديورانت، ترجمة زكي نجيب محمود ومحمد بدران، ( ١ ٩٩).

[٢١] فكرة الألوهية عند أفلاطون، مصطفى النشار، ٢٢٨.

قال جعفر بن محمد: لا زادَ أفضلُ من التقوى ولا شيء أحسنُ من الصمت، ولا عدوّاً أضرُّ من الجهل، ولا داءَ أدوأُ من الكذب.

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي
الجزء الثاني – ص ٥٣٦

عن أبي يحيى زكريا السَّاجيِّ، حدثنا المُزنيُّ، قال: قلتُ إن كان أحدٌ يُخرِجُ ما في ضميري، وما تَعَلَّقَ به خاطري من أمرِ التوحيد فالشافعي، فصِرْتُ إليه، وهو في مسجد مصر، فلما جَثَوتُ بين يديه، قلتُ: هَجَس في ضميري مسألةٌ في التوحيد فعلمتُ أنَّ أحداً لا يعلمُ علمكَ، فما الذي عندَكَ؟ فغَضِبَ، ثم قال: أتدري أين أنتَ؟ قلتُ: نعم، قال: هذا الموضعُ الذي أغرقَ اللهُ فيه فرعونَ. أبلغَكَ أنَّ رسولَ الله ﷺ أمر بالسؤالِ عن ذلك؟ قلتُ: لا، قال: هل تكلَّمَ فيه الصحابةُ؟ قلتُ: لا، قال: تدري كم نجماً في السماء؟ قلتُ: لا، قال: فكوكبٌ منها: تعرف جِنسَه، طلوعَه، أُفولَه، مِمَّ خُلِقَ؟ قلتُ: لا، قال: فشيءٌ تراهُ بعينِكَ من الخلقِ لستَ تعرفُه، تتكلَّمُ في علم خالقه؟! ثم سألني عن مسألةٍ في الوضوء، فأخطأتُ فيها، فَفَرَّعَها على أربعةِ أوجهٍ، فلم أُصِبْ في شيء منه، فقال: شيءٌ تحتاج إليه في اليوم خمسَ مرات، تَدَعُ علمه، وتتكلَّف علمَ الخالق، إذا هَجَس في ضميرك ذلك، فارجعْ إلى الله، وإلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة ١٦٣-١٦٤]، فاسْتَدِلَّ بالمخلوقِ على الخالقِ، ولا تتكلَّفْ علمَ ما لم يبلُغْهُ عقلُكَ، قال: فَتُبْتُ.

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي
الجزء الثاني – ص ٧٣٥

عن أبي ثور: سمعت الشافعيَّ يقول: كان مالك إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال: إني على بيِّنة من ديني، وأمَّا أنت، فشاكٌّ، اذهب إلى شاكٍّ مثلك فخاصِمْه.

نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي
الجزء الثاني – ص ٦٢٢

# وراءَ كل ملحدٍ حكاية

## .. إسماعيل أحمد أدهم
## نشأتُه وتربيتُه

بقلم د. السرداب "elserdap"

التاريخُ الإسلاميُّ تاريخٌ طاهرٌ شريفٌ وبِطولِ تاريخِ أُمةِ الإسلامِ وبكثرةِ علمائِها وأئمتِها قلَّما تجدُ فيها مُرتدًا كافرًا أو ملحدًا خبيثًا.

يقول **أبو محمدٍ ابنُ حزم** رحمه الله: ﴿ لم يلحدْ في تاريخ الإسلام إلا ثلاثة ﴾. ونحن إذ نَعرضُ لأحدِ هؤلاءِ الشواذِّ فليس لنا غايةً إلا تبيانُ مواطنِ الخطلِ ومعاطنِ الخللِ في فكرِه ومصادرِ ثقافتِه وتنشئتِه ... وإسماعيل أحمدُ أدهم أحدُ هؤلاءِ الشواذِّ في تاريخِ أُمتنا.

وُلد بتركيا وأعلن إلحادَه ومات بمصر سنة ١٩٤٠ ميلادية، وكان ملحدًا شهيرًا حصل على الدكتوراه في الرياضياتِ من موسكو وصَنفَ كُتبًا كثيرةً منها **"لماذا أنا ملحد"**.. **"من مصادر التاريخ الإسلامي"** .. **"حياةُ محمد"**.. **"نشأةُ الإسلام"**.

ومن أشهر مصنفاتِه تداولاً رسالتُه **"لماذا أنا ملحد"** وقد ردَّ على رسالته هذه الدكتورُ **أحمد زكي أبو شادي** برسالةٍ عنوانُها **"لماذا أنا مؤمن"**، وكذلك ردَّ عليها **محمد فريد وجدي** بمقالةٍ عنوانُها **"لماذا هو ملحد"**.

ولكن دعونا ننظرُ لماذا هو ملحد؟

يقول إسماعيلُ أحمد أدهم: ﴿ فقد كان أبي من المتعصبين للإسلام والمسلمين، وأمي مسيحيةٌ بروتستانتيةٌ ذاتُ مَيلٍ لحرية الفكرِ والتفكير، ولا عجب في ذلك فقد كانت كريمةَ البروفيسور وانتهوف الشهير ﴾[١].

ويقول: ﴿ عشتُ أيامَ طفولتي حتى أواخرِ الحربِ العظمى مع شقيقتيَّ في الأستانة، وكانتا تُلَقناني تعاليمَ المسيحيةِ وتسيران بي كلَّ يومِ أحدٍ إلى الكنيسة ﴾[٢].

وهنا خللٌ لا يُخفى .. وإشكاليةٌ واضحةٌ أصابت عقلَه إذ كيف يجتمعُ في عقل طفلٍ إيمانٌ بالله الواحدِ الأحدِ، وإيمانٌ بأقانيمَ ثلاثةٍ وتثليثٍ وتجسيد!

ويبدو أن صاحبَنا كان سعيدًا بهذا الخللِ الفكريِّ فأراد أن يضيفَ لخللِه خللاً آخرَ أشدَّ عُمقًا وأكثرَ تأثيرًا على عقيدتِه وفكرِه المستقبليِّ.

يقول إسماعيل أدهم: ﴿ وفي هذه الفترةِ قرأتُ لداروين **"أصل الأنواعِ"** و **"أصل الإنسانِ"** وخرجتُ من قرائتِهما مؤمنًا بالتطور. وقرأتُ مباحثَ **هَكسلي، وهِيجِل، والسير ليل، وبيجهوت،** وانكببتُ أقرأُ في هذه الفترةِ **لديكارت** و**هوبس وهيوم** وكانت، وأنا لم أتجاوزْ الثالثةَ عشرة من سنيِّ حياتي. ولكني لم أكن أفهمُ كلَّ ما أقرأُه لهم. وخرجتُ من هذه الفترةِ نابذًا نظريةَ الإرادةِ الحرة، وكان **لسبينوزا** و**آرنست هيجل** الأثرُ الأكبرُ في ذلك ﴾[٣].

كتابُ **"أصلُ الأنواعِ"** الذي قرأه صاحبُنا يقول عنه **جوزيف ستالين** الملحدُ الشهيرُ ورئيسٌ سابقٌ لروسيا: ﴿لقد كنتُ أنوي أن أصيرَ قِسيسًا إلى أن قرأتُ كتابَ **"أصل الأنواع"** لتشارلز داروين فأعلنتُ إلحادي وتركتُ الكنيسةَ ﴾ ، ويقولُ **ماوتسي تونج** رئيسُ الصينِ السابق كلامًا قريبًا من ذلك، ويبدو أن هذا الكتابَ السخيفَ كان له مفعولُ السحرِ إلى أن تَبينَ أنه خدعةٌ كبرى، ونأسفُ لمن ألحد بسببِه. يقول العالمُ السويديُّ **صورين لوفتروب "Soren Lovtrup"** : ﴿يوماً ما ستوصفُ الأسطورةُ الداروينية بأنها أكبرُ خدعةٍ في تاريخ العلم ﴾[٤].

أما **هَكسلي** الذي يذكره صاحبُنا فهو **توماس هَكسلي** جَروُ **داروين** كما كان يُحب أن يُلقَّب. هذا المشرِّح أعلن فجأةً أنه لاأدريٌّ وانضم لحلفِ **داروين**، أما **هيجل** الذي يَذكره صاحبُنا فهو **آرنست هيجل** أشهرُ نَصابٍ في تاريخِ العلمِ وهو العالِمُ التطوُّريُّ الشهيرُ الذي قام بتزييفِ صورِ الأجنةِ ليؤيدَ الداروينيةَ، لكنه اعترف بذلك فيما بعدُ وقال: ﴿ كان لابُد ان أقفَ في مَوْقفِ المُدان والمُعابِ عليه بعد أن اعترفتُ بما قمتُ به من تزييفٍ وتشويهٍ للحقيقة. إلا أن عزائيَ الوحيدُ في هذا الأمرِ هو أن هناك مئاتٌ من الأصدقاءِ ممن يوثقُ فيهم من المراقبينَ علماءِ الأحياءِ المشهورينَ قد وقفوا بجانبي وشاركوني رأيي هذا، ليس هذا فحسب بل وارتكبوا تزييفًا يعادل ما ارتكبتُه أنا بما نشروه في كتبِ علمِ الأحياءِ التي ألَّفوها وفي رسائلِهم ومجلاتِهم العلميةِ والتي حَوت معلوماتٍ غيرَ مؤكدةٍ قاموا بإعادة تنظيمِها من جديد ﴾[٥].

وقرأ صاحبُنا **لهوبس**، و**هيوم**، و**السير ليل**، والثلاثة يُمثلون لعصرِ النهضةِ بأوربا ومرحلةِ اهتزازِ الثوابتِ، والحتميةِ الماديةِ الهوبزيةِ التفكيكيةِ والتي طبَّقها صاحبُنا تطبيقًا عمليًا في آخرِ حياتِه كما سنرى. وهكذا عاش صاحبُنا ينهلُ من المرضى والشكاكينَ حتى مرض مثلَهم واعتلَّ قلبُه مثلَهم.

قال **الذهبيُّ** رحمه الله في ترجمةِ **ابنِ الراونديِّ**:

> وكان يُلازم الرافضةَ والملاحدة، فإذا عوتبَ قال: (إنما أُريدُ أن أعرفَ أقوالهَم)، إلى أن صار ملحدًا وحطَّ على الدينِ والملة

إنَّ الخيرَ والشرَّ موجودٌ في باطنِ الإنسانِ جنبًا إلى جنبٍ، ولا توجدُ تدريباتٌ أو قوانينٌ ولا تأثيراتٌ خارجيةٌ يمكن بها إصلاحُ الإنسانِ، لكن عندما يُغرق الإنسانُ نفسَه في بحارِ الشكِّ والشكاكين ومُواثبةِ كُتبِ الفلاسفةِ من غير ما حصيلةٍ علميةٍ أو عقائديةٍ تُحَصنه يَحدثُ داخلَ النفسِ الإنسانيةِ ومن دون سابقِ تمهيدٍ اتخاذُ قرارٍ جُوانيٍّ لصالحِ الشرِّ على حسابِ الخيرِ، لصالحِ الشكِّ على حسابِ اليقينِ، فكما يقولُ الأستاذُ **حاتم** في إحدى محاوراتِه في منتدى التوحيد: إن الآليةَ العقليةَ لإنتاجِ الشكِّ أسهلُ بكثيرٍ من آلياتِ إنتاجِ اليقين، والشكُّ يغلبُ على الحدثِ وقليلِ العلم، بينما اليقينُ يحتاجُ صاحبُه إلى إعمالِ العقلِ ليُغالبَ الشكَّ، لأنه إذا لم يُفكرْ فإن بذرةَ الشكِّ تبقى وتستمر .. فإنتاجُ الشكِّ أسهلُ وأيسرُ على عقلِ الحدثِ من إنتاجِ اليقين، وهذا ما حدث مع صاحبِنا حتى سقط في هاويةِ الإلحادِ نسألُ الله السلامة.

والآن لننظرْ إلى مدى مصداقيةِ وإنصاف صاحبِنا في البحثِ، يقول إسماعيلُ أدهم: ﴿ ولكن ما معنى الصدفةِ والتصادف؟ يقول **هنري بوانكاريه** في أول الباب الرابع من كتابه :"**Science et Methode**" في صددِ كلامِه عن الصدفةِ والتصادف: "إن الصُدفةَ تُخفي جهلَنا بالأسباب، والركونُ للمصادفةِ اعترافٌ بالقصورِ عن تَعرُّف هذه الأسباب"﴾. إنه كلامٌ هادئٌ محترمٌ يقتبسُه صاحبُنا.

والآن .. لنقرأْ ردَّ صاحبِنا على هذا الكلام: يقول في خاتمةِ رسالتِه **"لماذا أنا ملحد"** ردًا على هذا الاقتباس: ﴿ أما أنا شخصيًا فلا أجدُ هذه الصعوبةَ إلا شكليةً، والزمنُ وحدَه قادرٌ على إزالتِها، ومن هنا لا أجدُ بُدًّا من الثباتِ على عقيدتي العلميةِ والدعوةِ إلى نظريتي القائمةِ على قانون الصُدفةِ الشاملِ الذي يُعتبرُ في الوقت نفسِه أكبرَ ضربةٍ للذين يؤمنون بوجود الله﴾.

أين هي حُججك العلمية؟! .. ما هذا المستقبلُ الذي تُعلقُ عليه كفرَك؟

نعود لصاحبنا وقد تحولت الآن فكرةُ الإلحادِ في ذهنِه إلى عقيدةٍ ومذهبٍ يدافعُ عنهما، يقول صاحبُنا: ﴿ في الأستانةِ درستُ الرياضياتِ وبقيتُ كذلك ثلاثَ سنواتٍ وفي هذه الفترة أسستُ (جماعةَ نشرِ الإلحاد) بتركيا وكانت لنا مطبوعاتٌ صغيرة﴾[٦].

وبعد أن عاد لمصرَ كان يعاني من نفسِ الداءِ وبدأ يجمعُ الأموالَ ويعلنُ عن عنوانِ منزلِه في كتبه (شارع موشطي باشا رقم ٢٣ اسكندرية)[٧]. لقد صار الإلحادُ داءً يسري في جسدِه كلِّه حتى ملأَ جوانحَه فقرر التخلصَ من حياتِه.

# نهايةُ ملحد

وبعد أن ذاق إسماعيلُ أدهمُ طعمَ الإلحادِ ودخل هذا العالمَ المرعبَ المخيفَ تظاهرَ أنه سعيدٌ وأنه مستمتعٌ بإلحادِه وبحياتِه وقال: «فأنا ملحدٌ ونفسي ساكنةٌ لهذا الإلحادِ ومرتاحةٌ إليه، فأنا لاأفترقُ من هذه الناحيةِ عن المؤمنِ المتصوفِ في إيمانه»[٨]. وتقريبًا كلُّ ملحدٍ يقولُ لك ذلك، فهو سعيدٌ والدنيا لونُها بمبي، وهذا في الظاهرِ بينما هؤلاءِ يعانون سُقمًا شديدًا وهلعًا رهيبًا وقلقًا عجيبًا، ولم تَظهر الفلسفاتُ العبثيةُ والتشاؤميةُ السارتريةُ إلا من تحت رؤوسِ الملاحدةِ، ولذلك لم يكن غريبًا على صاحبِنا الذي يقول أنه سعيدٌ ومبتهجٌ أن ينتحر.

ففي مساءِ الثالثِ والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٤٠م وُجدت جثةُ إسماعيل أدهم طافيةً على مياه البحر المتوسط وقد عثر البوليسُ في مِعطفه على كتابٍ منه إلى رئيسِ النيابةِ يخبره بأنه انتحر لزُهده في الحياةِ وكراهيتِه لها، وأنه يوصي بعدم دفن جثته في مقبرةِ المسلمين ويطلب إحراقها!!

نعم لقد انتحر صاحبُنا ابنُ التسعةِ والعشرين ربيعًا وهو في ريعان الشبابِ وامتلاءِ الطاقةِ والأمل .. لقد قتله الإلحادُ! إسماعيلُ أدهمُ الحاصلُ على الدكتوراه في الرياضياتِ من موسكو .. المتقنُ لستِّ لغاتٍ .. الذكيُّ الألمعيُّ كما يقول **أحمد حسن الزيات** ماذا قدمَ هذا الألمعيُّ لأبناءِ جيله؟ هل قدمَ كتابًا واحدًا يخدمُ به أُمتَه في الرياضيات؟ هل وضع مُصنفًا لترجمةٍ علميةٍ عن الكتب الغربية؟ لم يضع إلا ما تضعُه البعيرُ من السُّقم ... لم يَضعْ إلا كتاباتِ تهجُّمٍ على أُمةِ الإسلامِ. لقد باع قضيةَ أُمتهِ وصار كأمثالِه عبئًا على أُمتِنا وعلى نهضتِنا.

يقول الشيخُ **محمدٌ الغزاليُّ** رحمه الله باكيًا حالَ المثقفينَ الذين خانوا الأمانةَ المناطةَ بأعناقِهم:

إن هؤلاءِ الشبابِ الذين نُرسلُهم
للغربِ ليُكملوا نقصَنا في العلومِ التجريبيةِ
فإذا الذاهبُ إلى موسكو يعودُ بفكرٍ ماركسي .. والذاهبُ
إلى واشنطن يعودُ بفكرٍ إنحلاليٍّ تبشيري .. والعلمُ النافعُ القليلُ الذي
حصل عليه هؤلاءِ سرعان ما يتبخر .. ويبقى السُّم .. إن المرءَ إذا وهى
دينُه يُقادُ من بطنِه وفرجِه أكثرَ مما يُقادُ من عقلِه وضميرِه، وتلك حالةُ مبعوثين
كثيرين ... إننا نُحارَبُ من أبناءٍ من بني جلدتِنا ويتكلمون بألسنتِنا ... لقد رأيتُ
أشخاصًا من هؤلاءِ يدَّعون الإلحادَ ويكفرون بالأديانِ وظننتُ أنهم قد قضوا
دهرًا بين الأديان يُنقبون غَورَها ويبحثون مناهجَها واستدلالاتِها فإذا هم
أحداثٌ لا يعرفون من الدين إلا اسمَه ولا يعرفون من الشريعةِ إلا
رسمَها ...ماذا تبقى لهؤلاءِ بعد أن تركوا الإسلام ؟؟؟
إن وِطابَهم خالٍ وتاريخَهم صِفر.

المراجع :


[١] لماذا أنا ملحد، ص٢.

[٢] المصدر السابق.

[٣] المصدر السابق.

[٤] Soren Lovtrup , Darwinism: The Refutation of A Myth, Croom Helm, New York, ١٩٨٧, s.٤٢٢

( بحث كانت يوماً ما داروينية لهارون يحيى )

[٥] Francis Hitching, The Neck of the Giraffe: Where Darwin Went Wrong, New York: Ticknor and Fields, ١٩٨٢, p.٢٠٤

( بحث كانت يوماً ما داروينية لهارون يحيى )

[٦] لماذا أنا ملحد.

[٧] من مصادر التاريخ الإسلامي، لإسماعيل أدهم، ص٥٠.

[٨] لماذا أنا ملحد.

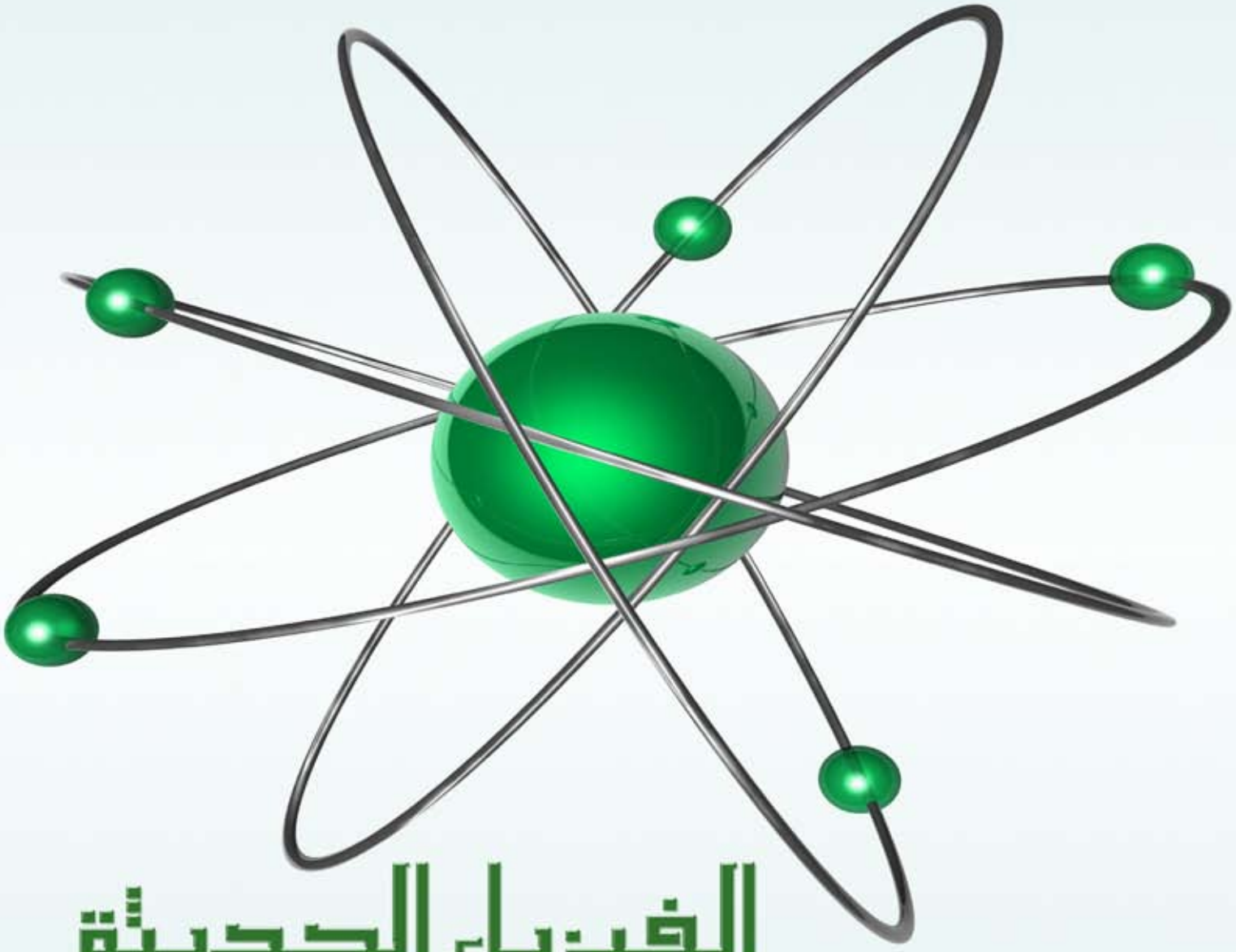

# الفيزياء الحديثة ومذهب السفسطة

بقلم د. أبو مريم

تتردد حاليا وعلى نطاق واسع دعوى أن العلم التجريبي قد أبطل فكرة اليقين التي كثيرا ما ترددت في كلام الفلاسفة وعلماء الدين، ويستند أصحاب تلك الدعوى إلى معطيات التجارب التي أجريت على الأجسام الذرية وتفسيرها في ضوء نظرية الكم التي اشتملت على ما يعرف بمبدأ (**عدم التيقن**) أو (**مبدأ الريبة**) ويسمى أيضا (**مبدأ هيزنبرج**) نسبة لواضعه الفيزيائي الألماني **Werner Heisenberg**.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن: ما الذي يعنيه ذلك المبدأ (بغض النظر عن اسمه)؟ وما هي قيمته العلمية؟ وما وجه استدلالهم به على نفي اليقين؟

إن الفكرة الرئيسة هي أننا عندما نقوم بإدراك حقيقة شيء ما فإننا نتفاعل معه تماما كما يحدث في عملية الشم والتذوق، وهذا الامتزاج والتفاعل يؤثر على ذلك الشيء الذي نعمل على إدراكه ويغيره، وبالتالي فعملية الإدراك نفسها هي التي تجعل من الإدراك التام اليقيني للأشياء غير ممكن بحيث لا بد من وجود نسبة خطأ في معارفنا.

والواقع أنه لم تكن لتلك الفكرة أهمية في حياتنا قبل اكتشاف الذرة وما دونها وإجراء التجارب على هذا المستوى، فتلك النسبة من الخطأ أو ما يسمى بهامش الدقة الناشئة عن استعمال أدوات الإدراك لم يكن له قيمة تذكر من الناحية العملية في تعاملنا مع الأجسام، أما تلك الجسيمات المتناهية في الصغر فإن أي تأثير مهما كان ضئيلا يصبح ذا فاعلية بالنسبة لها، وإذا كنا معنيين بإدراكها والتعامل معها فلا بد من أن يؤخذ ذلك المبدأ في الاعتبار.

ومبدأ (**عدم اليقين**) هو تطبيق لتلك الفكرة في مجال الجسيمات الذرية ويعنى أنه لا يمكن تحديد خاصيتين مقاستين من خواص جملة كمومية إلا ضمن حدود معينة من الارتياب، أي أن تحديد أحد الخاصيتين بدقة ارتياب ضئيلة يستتبع ارتيابا كبيرا في الخاصية الأخرى.

ويشيع تطبيق هذا المبدأ بكثرة على خاصيتي الموضع والسرعة لجسيم كمومي.

ولتوضيح ذلك: إذا أردنا مثلا أن نعرف مكان وجود كرة داخل حجرة مظلمة فإننا لو قمنا باستخدام اليد فإننا سنظل نبحث حتى تصطدم أيدينا بالكرة، وسنقول إننا وجدنا الكرة ليس في مكان محدد بدقة تامة لأن في لحظة الإدراك اصطدمت اليد بالكرة فحركتها من مكانها، ومهما حاولنا فلن نستطيع أن ندرك مكان الكرة الحقيقي لحظة الاصطدام ولكننا سنقترب فقط منه بقدر ما نتمكن من تقليل نسبة الطاقة التي تكتسبها الكرة من اليد وبقدر معرفتنا بسرعة الكرة، وسنبقى دائما غير متيقنين ١٠٠ ٪ من مكان الكرة في لحظة ما.

الشيء نفسه ينطبق على تحديد موقع الإلكترون فإننا حتى نحدد موضع إلكترون في لحظة معينة فإننا نسقط عليه سيلا من الفوتونات ثم نستقبلها، وبفرض أنها تسلك مسلك الجسيمات فقط وليس مسلك الموجات والجسيمات معا من باب التبسيط فإن الإلكترون سيكتسب طاقة نتيجة لاصطدامه بالفوتون، وبالتالي يحدث له ما يشبه حالة الكرة عند اصطدام اليد بها ، وبالتالي لا يمكن أن نحدد مكانه.

أما عن قيمته العلمية فهو من الركائز الأساسية في

نظرية الكم التي هي من أنجح النظريات في الفيزياء الذرية، كما أنه أمكن بواسطته التعبير بدقة عن هامش عدم التيقن الذي يمكن أن نصل إليه عن طريق وضع المعادلة الرياضية التي تحكم العلاقة بين درجتي الارتياب في كمية التحرك والموضع عن طريق تحديد الثابت في العلاقة العكسية وهو ثابت بلانك .

فمبدأ هيزنبرج إذن هو من المسلمات التي لا مجال لإنكارها، وهو يعنى فقط محدودية وسائل الإدراك وأن هناك تبعا لذلك سقفا معرفيا لا يمكن تجاوزه، وهو ما أكد عليه الفلاسفة والأصوليون كإمام الحرمين منذ أمد بعيد، فهو يقرر أن معرفة خصائص الأجسام على التحقيق يتراوح بين كونه من مواقف العقل وبين كونه متعذرا، ولا أدرى الفرق بين الاستحالة والتعذر فيما يتعلق بهذا الأمر إلا إذا كان إمام الحرمين يريد انتقاد الأوائل ( يُعنى بها فلاسفة اليونان ) على أصولهم غير أنه لا يستطيع أن يخالفهم في أمر لا يسعه إلا أن يوافقهم فيه، يقول **إمام الحرمين**: «وقد صار معظم الأوائل إلى أن درك خواص الأجسام وحقائقها من مواقف العقول فليس من الممكن أن يدرك بالعقل الخاصية الجاذبة للحديد في المغناطيس.. وهذا عندي فيه نظر؛ فإنها وإن دقت فهي من عالم الطبائع فالجزئي من العقل مسيطر على كل الطبائع، ولكن ينقدح عندي في ذلك أمر يحمل التعذر عليه وهو إن تهيأ مفيض العقل من الإنسان للفيض الطبيعي فلا يكاد يبلغ هذا التركيب والتهيؤ مبلغا يفيض من العقل عليه ما يحيط بالخواص..»

فالمشكلة إذن لا بد وأنها تكمن في وجه استدلالهم بهذا المبدأ، فالفكرة في الأصل ذات بعد إحصائي وقابل للتطبيق على مجاميع من الإلكترونات، ثم إنها بدأت تأخذ بعدها الفلسفي على يد **هيزنبرج** فجعل منها دليلا على استحالة التعرف على طبيعة المادة وهل هي طاقة أم جسيمات ، ثم تطور هذا المفهوم -أو لنقل انحرف كثيراً- على يد عالم الفيزياء النظرية الدانمركى **نيلز بور** Bohr بإعطائه ذلك المبدأ معنى فلسفيا عاما وشاملا أقرب ما يكون إلى مذهب السفسطة، وقال إن مبدأ **هيزنبرج** لا يعكس فقط عدم قدرتنا على إجراء قياسات دقيقة بل أيضا عدم وجود حقيقة موضوعية محددة بمعزل عن عملية القياس، وأن العشوائية ليست سمة التجربة فحسب بل هي خاصية مميزة للكون.

وبالطبع لم يلق هذا التفسير غير العلمي رواجا تاما في أوساط الفيزيائيين، فقد عارضه الكثيرون وهاجموه بضراوة، ومن أبرزهم **ألبرت آينشتاين** Einstein والذي لم ير مبررا على الإطلاق لما زعمه **بوهر**؛ فالعشوائية الحاصلة فى عملية القياس لا تدل إلا على أن هناك عناصر لم تؤخذ في الاعتبار تؤثر على التجربة، وأكد على أن هناك حقيقة موضوعية ثابتة للأشياء مستقلة عن المراقب، وسمى هذا الموقف بـ: **(الواقعية الموضوعية)**

وقد قام لإثبات ذلك بإجراء تجربة ذهنية معقدة بمساعدة عالمين آخرين عرفت باسم (**مفارقة آينشتاين- بودولسكى – روسين، أو EPR Paradox**)..

ولا شك في صحة ما ذهب إليه آينشتاين من أن حقيقة الأشياء لا تخضع لمعارفنا، فهذا لا يحتاج لبرهان، ولا شك أن الكون يسير وفق نظام مطرد، ولا شك أن العشوائية التي نجدها نحن في عملية القياس وتقديرنا للأشياء لا ترجع إلى حقيقة تلك الأشياء..

إذن المسألة برمتها قد أسيء فهمها مرتين:

الأولى: حين اعتقدوا أن اليقين يعنى العلم المطلق الكامل المحيط بالمعلوم، وهذا ليس مفهوم اليقين بل هو مفهوم العلم الإلهي، ولو كان هذا هو المقصود باليقين لاستنكر الناس وجوده لهم لأول وهلة، ولما تطلب الأمر أن ينتظروا كل هذه المبادئ والتجارب والمعادلات لإثبات عدم وجوده.

والثانية: حين خلطوا بين نسبية المعرفة ونسبية الحقيقة فظنوا أن نسبية المعرفة تستلزم نسبية الحقيقة وأن وجود حاجز معرفي لا يمكن تجاوزه بالنسبة للإنسان يعنى أنه لا توجد حقيقة تامة للأشياء، وكأن لمعرفة الإنسان بالأشياء أثر في وجودها!!

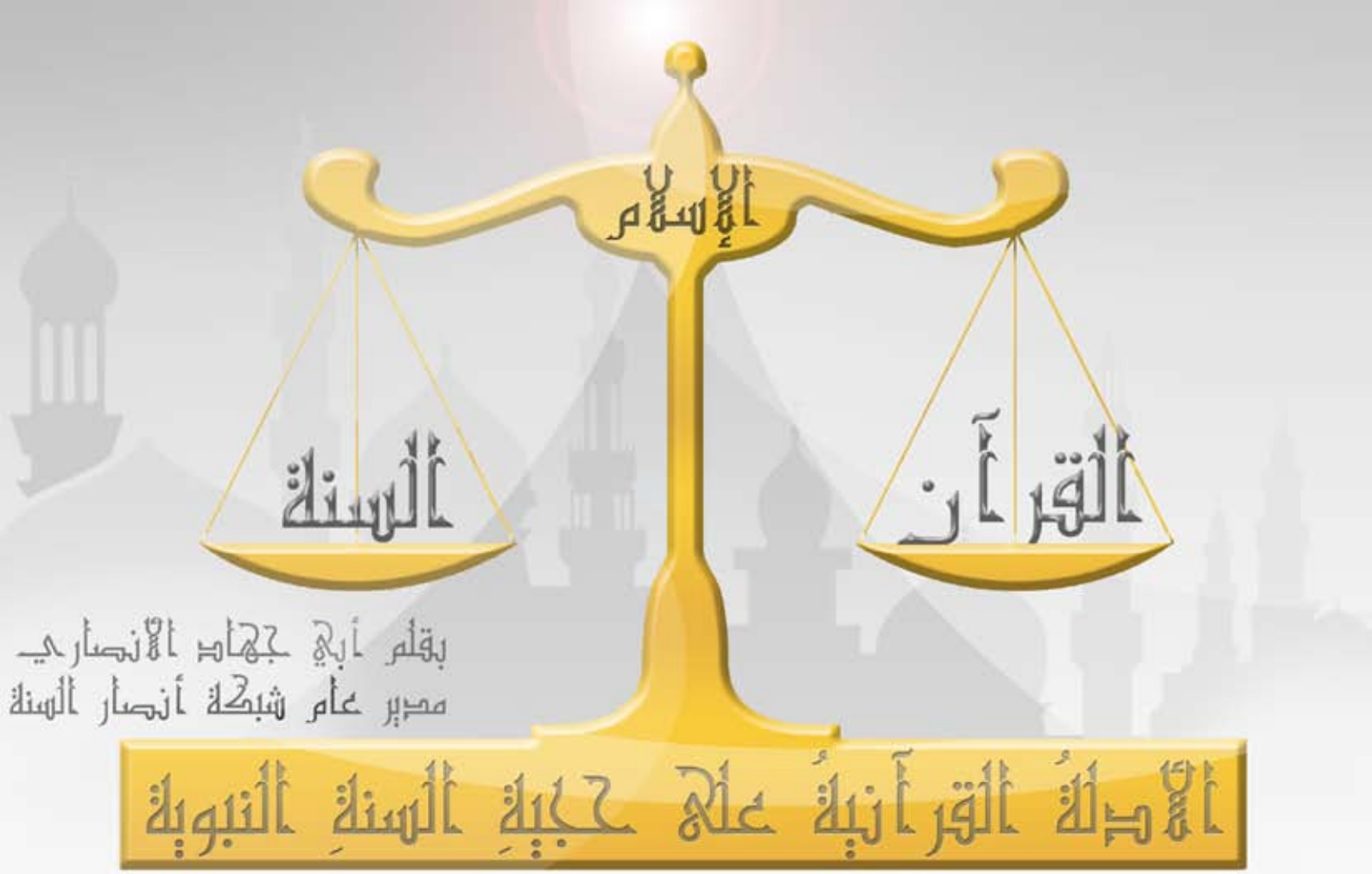


ĂllNjŬɛ hʊs‡Θllɛ

**الحمدُ لله والصلاةُ والسلام على رسول الله وبعد ،،،**

**للحق أهلُهُ، كما أنَّ للباطل أهلَه، وكِلا الفريقين يدّعي أنه على الحقِّ ومن خالفه على الباطل، وكلا الفريقين يحشدُ الأدلةَ لإثبات صحةِ مذهبه، وبطلانِ مذهبِ مُخالفه، وسيظلُّ الأسلوبُ الأمثلُ والأقوى للمحاجةِ أن تستخدمَ أدلةَ الخصمِ في إثباتِ صحةِ مذهبِك وبطلانِ مذهبِه.**

ويحلو لمنكري السنة -على اختلاف دركاتهم- أن يجحدوا حجيةَ السنةِ النبويةِ في التشريعِ جنباً إلى جنبٍ مع القرآنِ الكريم. وغنيٌّ عن البيانِ أنهم في هذا قد أنكروا صريحَ القرآنِ وما أجمع عليه أهلُ الإسلام -منذ عهدِ النبيّ ﷺ حتى الآن- من اعتبارِ السنةِ المصدرَ الثاني للتشريع في الإسلام.

ولا أملُّ من ذِكر أن السنةِ النبويةِ ليست في حاجةٍ لأن نثبتَ حجيتَها في التشريع الإسلاميِّ، فأدلةُ حجيةِ السنةِ متواترةٌ ومتضافرةٌ ولا يمكنُ أن نذكرَ عددَ ولا حجمَ ولا قوةَ تلك الأدلةِ حتى نذكرَ قولَ الشاعر:

قد تُنكرُ العين ضَوءَ الشمسِ من رمدٍ ويُنكرُ الفمُ طَعمَ الماءِ من سَقمِ

وقولَ الشاعر:

ولربما جهلَ الفتى سُبُلَ الهدى والشمسُ بازغةٌ لها أنوارُ

فأدلةُ حجيةِ السنةِ منها ما هو أدلةٌ شرعيةٌ ومنها ما هو أدلةٌ عقلية، ولكني سأعمدُ إلى ما ذكرتُه في بداية مقالي من أن أَمثَلَ أُسلوبٍ لمحاجةِ الخصمِ هو استخدامُ أدلتِه لإثباتِ صحةِ مذهبِنا وفسادِ مذهبِه.

فطائفةٌ من منكري السنةِ ينكرونها بدعوى أنها تُعارضُ القرآنَ الكريم، ويدَّعون أن القرآنَ الكريمَ هو المصدرُ التشريعيُّ الوحيدُ فيالإسلام، ودون أن نخوضَ في تفصيلاتٍ كثيرةٍ يتضحُ بها فسادُ وبطلانُ منهجِ منكري السنة، سأُعرّجُ -سريعاً- على اتباعِ المنهج الذي حددتُه والخطُّ الذي رسمتُه لنفسي سابقاً، وأقولُ إن القرآنَ الكريم هو أعظمُ دليلٍ على حجيةِ السنةِ النبويةِ المطهرةِ في التشريعِ الإسلاميّ.

وعادةً ما يستدلُّ علماؤنا ودعاتُنا بآياتٍ معينةٍ ظاهرةِ الدلالةِ في إثباتِحجيةِ السنةِ النبويةِ، ولكنى أرى أن الأمرَ أكثرُ من هذا، فبإمعانِ النظرِ والتدبرِ فيالقرآن الكريم، قد نكتشفُ أن كلَّ آيةٍ من آياتِ القرآنِ الكريمِ تُعدُّ دليلاً على حُجيةِ السنةِ النبوية.

ويكفينا هنا أن نوردَ تلك الآياتِ ولسنا بحاجةٍ كبيرةٍ إلى تفسيرِها فكثرتُها ودلالتُها الظاهرةُ تُغني عن تفسيرِها ولكننا سنشيرُ –بإيجازٍ– إلى أحدِ أوجُهِها الاستدلالية.

## الآياتُ القرآنيةُ التي تنصُّ صراحةً على حجيةِ السنةِ النبوية
## (وجوبُ طاعةِ الرسولِ وتحذيرُ تاركها)

١ ) قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

[آل عمران: ٣١-٣٢]

**وجهُ الدلالة:**

القرآنُ يحكمُ بالكفرِ على من يعصي اللهَ ورسولَه.

٢ ) قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

[النساء: ٥٩]

**وجهُ الدلالة:**

صدْرُ الآيةِ يصفُ الذين يطيعون اللهَ ورسولَه بالإيمان، فهي كالمتممةِ لسابقتِها.

٣ ) قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

[الأنفال: ٢٠-٢٢]

**وجه الدلالة:**

هذه الآيةُ جمعت بين كلا الأمرين: الأمرُ والنهيُ وتصفُ المخالفينَ لهما بالدواب.

٤ ) قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

[النور:٥٤]

**وجه الدلالة:**

هذه الآيةُ سابقةٌ لآيةِ الاستخلاف: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] وكأنها تقولُ أنه لا استخلافَ في الأرضِ ولا تمكينَ إلا بطاعةِ اللهِ واتباعِ الرسول ﷺ فهي كالسببِ للنتيجة.

٥ ) قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾

[محمد: ٣٣]

**وجه الدلالة:**

تنصُّ الآيةُ على أن مخالفةَ النبيِّ ﷺ من أسبابِ بطلانِ الأعمال.

٦ ) قال تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[الحجرات: ١٤]

**وجه الدلالة:**

الآيةُ تبينُ أنه لا إيمانَ إلا بطاعةِ اللهِ ورسولِه.

٧ ) قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

[النساء: ١٣-١٤]

**وجه الدلالة:**

هذه الآيةُ جاءت بالثوابِ لمن يُطيعُ اللهَ ورسولَه وبالعقابِ لمن يعصي الله ورسوله ﷺ.

٨) قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾

[النساء: ٦٩]

**وجه الدلالة:**

هذه الآيةُ جاءت بالدرجةِ في الجنةِ وتعيينِ جزاءِ من يطِيعُ اللهَ ورسولَه.

٩) قال تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾

[النساء: ٨٠]

**وجه الدلالة:**

هذه الآيةُ جاءت بالقاعدةِ العظمى التي تبينُ أن طاعةَ الرسولِ هي طاعةٌ للهِ سبحانه بلا خلاف.

١٠) قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

[النور: ٥١-٥٢]

**وجه الدلالة:**

تخبرُنا هذه الآيةُ أن من صفاتِ المؤمنين طاعةَ اللهِ ورسولِه.

١١) قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

[الأحزاب: ٧١]

**وجه الدلالة:**

آيةٌ من سورةِ الأحزابِ تبينُ أن طاعةَ اللهِ ورسولِه من أسبابِ النصرِ في الدنيا والفوزِ بسعادةِ الآخرة، وتُذكرُهم بما كان من أثرِ مخالفةِ أمرِ النبيّ ﷺ يومَ أُحُدٍ وكأنها تدعوهم لعدم تكرارِ الأمرِ حتى لا تتكررَ النتيجة.

١٢) قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

[الفتح: ١٧]

**وجه الدلالة:**

آيةٌ من سورة الفتحِ تخبرُ أن مِن أهمِّ أسبابِ الفتح طاعةَ اللهِ ورسولِه.

١٣) قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[الأحزاب: ٧١]

**التفسير:**

هذه الآيةُ تبينُ أن من صفاتِ المؤمنين: الموالاةَ فيما بينهم، والأمرَ بالمعروفِ، والنهيَ عن المنكر، وإقامةَ الصلاة، وإيتاءَ الزكاة، وطاعةَ الله، وطاعةَ رسولِه، فجاءت طاعةُ اللهِ ورسولِه من جملةِ الأعمالِ الصالحةِ ومن جملةِ صفاتِ المؤمنين.

١٤) قال تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

[الأحزاب: ٣٢-٣٣]

**التفسير:**

تبينُ الآيةُ أن نساءَ النبيّ ﷺ لَسن مَعفياتٍ من طاعتِه ومن ثَم فمَن دونهُن هو أولى بحُكمهن. كما تُبين الآيةُ أن في طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه إذهابٌ للرجسِ وتطهيرٌ للمسلم.

١٥) قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[آل عمران: ٣١]

**التفسير:**

هذه هي آيةُ المحنةِ والاختبارِ لكل من يَدعي حُبَّ اللهِ سبحانه وتعالى، وتُقَيدُ هذا الحبَّ باتباعِ النبيّ ﷺ وأن نتيجةَ ذلك وجزاءَه، مغفرةُ الذنوب.

١٦) قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۞ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[آل عمران: ١٣٠-١٣٢]

**التفسير:**

القرآنُ الكريمُ ينهى عن الربا ، ولم يُحددْ تعريفَه ولا ماهيتَه، ثم يأمرْ بطاعةِ الرسول ﷺ لأنه هو الذي سيبينُ معنى الربا ويُحددُ ماهيتَه في سُنته.

١٧) قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾

[المائدة:٩٢]

**التفسير:**

هذه الآيةُ تكشفُ طاعتين: الأولى لله سبحانه، والثانيةَ للرسول ﷺ؛ لترُد شبهةَ من يَدعي أن طاعةَ الرسولِ هي الأخذُ بالقرآن دون السنة. وسيأتي - بإذن الله - مزيدُ بيانٍ حول هذه المسألة.

١٨) قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١]

ثم يتكرر الأمر في نفس السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠]

ثم يتكررُ الأمرُ نفسُه في السورةِ نفسِها للمرةِ الثالثة: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]

**وجه الدلالة:**

ثلاثُ أوامرَ بطاعةِ الله ورسولِه في سورةٍ واحدةٍ، ولولا السنةُ والأحاديثُ ما علِمنا ما هي الأنفال.

١٩) قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور:٥٦]

**وجه الدلالة:**

اقتصرت هذه الآيةُ على طاعةِ الرسولِ ولم تذكرْ (طاعةَ الله) لبيانِ استقلاليتَها عن طاعةِ اللهِ سبحانه، كما جاءت الايةُ في إطارِ الأمرِ بإقامةِ الصلاةِ وأداءِ الزكاةِ للإشارةِ إلى أن السنةَ هي المبينةُ لماهية كِليهما.

٢٠) قال تعالى: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المجادلة: ١٣]

**وجه الدلالة:**

يتكررُ الأمرُ نفسُه بطاعةِ النبيِّ في سياقِ آياتٍ تشيرُ إلى أن مناجاةَ الرسولِ ﷺ ليست كمناجاةِ أحدٍ من باقي الأمةِ ومن ثَمّ فإن طاعتَه ليست كطاعةِ أحدٍ من أُمتِه.

٢١) قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُواالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [التغابن: ١٢]

**وجه الدلالة:**

الأمرُ بطاعةِ الرسول يأتي في سياقِ آياتٍ تتحدثُ عن ضرورةِ تصديقِ الرسلِ وبيانِ عقابِ الذين خالفوهم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: ٥-٦]

٢٢) قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤]

**وجه الدلالة:**

التأكيدُ على طاعةِ الرسولِ بعينِها وأن هذه هى سنةُ اللهِ في أنبيائِه أجمعين، وقال تعالى: ﴿ **ليطاعَ بإذن الله** ﴾ ولم يقل: "ليطاع الله" ليُعلمَ أن طاعةَ الرسلِ هدفٌ في ذاتِها.

٢٣) قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

[النساء: ٦٥]

**وجه الدلالة:**

احتياجُنا لحكمِ الرسول صلى الله عليه وسلم رغم وجودِ القرآنِ يشيرُ إلى أن النبيَّ ﷺ يبينُ لنا الأحكامَ التي ينغلقُ علينا فهمُها من القرآنِ الكريم، وهذا دليلٌ قاطعٌ على حجيةِ السنة.

٢٤) قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۞ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

[آل عمران: ٥٢ – ٥٣]

**وجه الدلالة:**

هذا كلامُ الحواريّينَ لعيسى صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم، وهم يُقرون باتباعِهم له، ونبيُّنا ﷺ في هذا أولى، لأنه خاتمُ النبيين. وتبينُ الآيةُ أن التصديقَ وحدَه لا يكفي، ولكن لا بُد من الاتباع، والاتباعُ لا يكون إلا بالعمل، والعملُ لايكونُ إلا بمنهج، ومنهجُ الرسولِ هو سنتُه، ولو لم تكنْ السنةُ لكان من الأولى أن يكون الخطابُ: ﴿**ربنا آمنا بما أنزلتَ واتبعناه**﴾، ولكن هذا لم يكن، للدلالةِ على حجيةِ السنة.

شبيهٌ بذلك:

٢٥) قولُه تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَاللَّهَ كَثِيرًا ﴾

[الأحزاب: ٢١]

**وجه الدلالة:**

كيف تكونُ الأسوةُ إلا باتباعِ خُطى المؤتسى به وانتهاجِ نهجِ المقتدى به؟!!

٢٦) قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

[النساء: ١١٥]

**وجه الدلالة:**

الإعراضُ عن سنةِ النبيّ ﷺ من مَشاقتِه، والآيةُ تؤكدُ على ضرورةِ اتباعِ سبيلِ المؤمنينَ الذين نقلوا لنا هذا الدينُ والذين أجمعوا بلا خلافٍ من واحدٍ منهم على حجيةِ السنةِ الشريفة.

٢٧) قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

[محمد: ٣٢]

**وجه الدلالة:**

الجمعُ بين الكفرِ بالله، والصدُّ عن سبيلِه، ومشاقةِ الرسول، لبيانِ شناعةِ الجرمِ في كلٍ.

٢٨) قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

[الحشر: ٧]

**وجه الدلالة:**

تأويلُها تنزيلُها.

٢٩) قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

[الأعراف: ١٥٦-١٥٧]

**وجه الدلالة:**

الآيةُ تَنسبُ إلى النبيّ الأمرَ والنهيَ والحِلَّ والتحريم، وتصفُ مُتبعيه بالإيمان، وتذكرُ: ﴿ **النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ** ﴾ عامةً، ولم تذكر القرآنَ خاصة.

٣٠) قال تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾

[النجم: ١-٥]

**وجه الدلالة:**

طالما أن القرآنَ يصفُ النبيّ ﷺ بأنه لا ينطقُ عن الهوى، وأنه ينطقُ بالوحيِ، فلا شكَّ أن ما ينطقُ به ملزمٌ لأُمتِه. وخصوصُ سببِ نزولِ الآيةِ لا ينفي عمومَ لفظها.

وآخر دعوانا
أن الحمد لله
رب العالمين

# الحجج العلمية للإلحاد العربي

# طِبُ الفرنجة

من طريف القصص التي تدل على أثر بيئة الإسلام في تقدم الطب ما ذكره أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار من تعجبه من طب الفرنجة إبان الحروب الصليبية. حيث يظهر الفرق بين طبيبين نصرانيين، أحدهما نشأ في بيئة الإسلام وآخر في بيئة النصرانية. يقول أسامة :

ومن عجيب طبهم -أي الفرنجة- أن صاحب المنيطرة [في جبل لبنان] كتب إلى عمي [سلطان أمير شيزر] يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له "ما أسرع ما داويت المرضى!" قال ثابت:

"أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف. فعملت للفارس لُبَيْخَةً ففتحت الدمّلة وصلحت. وحَمَيْتُ المرأة ورطّبتُ مزاجها.

فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم "هذا ما يعرف شيئاً يداويهم" ، وقال للفارس "أيُّما أحبُّ إليك، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟" قال الفارس "أعيش برجل واحدة" فقال الطبيب الإفرنجي "أحضروا لي فارساً قويّاً وفأساً قاطعة"، فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس "اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها"، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر الطبيب الإفرنجي المرأة فقال "هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها" فحلقوه، وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف. فقال الطبيب الفرنجي "الشيطان قد دخل في رأسها"، فأخذ الموسي وشقّ رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم "بقي لكم إليّ حاجة ؟" قالوا "لا"، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه".

من جميل القصص التي تدل على حرص خلفاء المسلمين على استكتاب وتعيين المسلمين في وظائف الدولة الهامة هذه القصة :

فقد استكتب أبو موسى ﷺ نصرانياً ،

فكتب إليه عمر بن الخطاب ﷺ: اعزله واستعمل حنيفياً

فكتب إليه أبو موسى: إن من غَنَائِه وخبره كيتَ وكيت،

فكتب إليه عمر ﷺ : ليس لنا أن نأتمنهم وقد خونهم الله ، ولا أن نرفعهم وقد وضعهم الله ، ولا أن نستنصحهم في الأمر وهم يرون الإسلام قد وتَرَهم ويعطون الجزية عن يد وهم صاغرون .

فكتب إليه أبو موسى : إن البلد لا يصلح إلا به .

فكتب إليه عمر ﷺ : مات النصراني والسلام .

ومراد عمر بن الخطاب ﷺ بقوله : (مات النصراني) أي قدِّر يا أبا موسى أنَّ النصراني مات وانظر غيره يقوم بمصالح المسلمين.

ما اسم الحيوان الذي كان يجعل داروين يشعر بالمرض كلما رآه؟

المكان: صحراءُ مكةَ في حر الظهيرةِ والشمسُ ملتهبة.

الزمان: بدايةُ بعثةِ النبي ﷺ.

وخمسةٌ من المستضعفينَ السابقينَ الأوَّلين الذين عُذِّبوا في الله، أظهروا إسلامَهم، فاجتمع عليهم الجبابرةُ وأذاقوهم أليمَ العذاب، أخذهم المشركون فألبسوهم أدرُعَ الحديدِ وصهروهم في الشمس، فما منهم أحدٌ إلا واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسُهُ في الله، وهانَ على قومه، سجنوه وضربوه وقيدوه بالحبال، جروه من قدميه يأكلُ الحصى من لحمه وعظمه، أعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يرددُ متأثراً مجروحاً: أحدٌ أحد .. يزلزلُ بها كفارَ قريشٍ ويثبتُ بها إيمانَه.

ويمر أبو بكر رضي الله عنه أمام بلالٍ وهو يعذَّب، فيشتريه وهو في الحجارةِ بخمس أواقٍ ذهباً، يقولون له: ﴿لو أبيتَ إلا أوقيةً لبعناكَهُ﴾ ، فيقول أبو بكر: ﴿لو أَبيتم إلا مئةَ أوقيةٍ لأخذتهُ!﴾

**أحدٌ أحد .. كلمةٌ أبديةٌ خالدة، رددها صدقاً ويقيناً**

**فنصره الله سبحانه نصراً مبيناً، وعوَّضه عزًّا وتمكيناً ..**

ومضى بلالٌ ولم يزدد مع الأيام إلا رِفعة، يفتحُ الرسولُ عليه الصلاة والسلام مكةَ في عشرة آلافٍ من أصحابه، يدخلُ فاتحاً منتصراً، فيرى الأصنامَ التي كانت تُعبد من دون الله، فيشير إليها بعصاه فتتناثر، وتتساقط، ويقول: ﴿ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ [١]

وتحينُ صلاةُ الظهر ويجلسُ الناس جميعاً في صرحِ الكعبة المشرفة، ويقول عليه الصلاة والسلام: ﴿LJðÐ þýüh﴾ قال: ﴿ها أنا يا رسولَ الله! ﴾ قال: ﴿GnjþÄ5 LJdž LJRÞÐÄ fhz‡!ƒ þz T ƒ﴾ !! سبحان الله! أليس هذا رفعاً لرؤوسِ المستضعفين، أليس هذا هو العدلُ بعينه، أن يقومَ المولى الأسودُ يعتلي بيتَ الله، ليهتفَ بنداءِ الحق.

صعد بلالٌ واستوى على الكعبةِ ليخاطبَ الدنيا بشهادةِ الحقِّ إلى يوم الدين، ويرتفعُ الأذان، **الله أكبر الله أكبر.. الله أكبر الله أكبر..** فلما أذنَ بكى الناس، ومن الذي يرى هذا المشهد، ويرى هذه الصورة، ويسمعُ هذا الصوت، ويعيشُ هذه التفاصيل، ثم لا يبكي، شيءٌ عجيبٌ يومَ الفتحِ الأكبر، الفاتحُ رسولُ الله عليه الصلاة والسلام، الدينُ الإسلام، المؤذنُ بلال، من بلال؟ المولى الأسود، وأين يؤذن؟ على سطح الكعبةِ المشرفة، فكان أولَ من صدع بصوتِ الحق، على منارةِ الحق، يوم زهق الباطل وظهر الحق.

كان صوتُه جميلاً نادياً، يُشجي القلوب، وتَطربُ له الآذان، فبكى رسولُ الله عليه الصلاة والسلام، سالت دموعُه، لأنه تُذكر المعاناة، تُذكر الأيامَ العصيبةَ التي عاشتها هذه الطائفةُ المؤمنة، وتُذكر فضلَ الله عليه وإنعامَه بهذا النصر المبين، لقد انتصرَ محمدٌ ﷺ ، وها هو مولاه وحبيبُه الذي كان مطارَداً معذباً مهاناً، أصبح أول من أذَّن بعد فتح مكة ، وها هو صوتُ بلالٍ ﷺ يجلجلُ في هضابِ مكةَ وأوديتها بلا إله إلا الله، فتخشعُ له الدنيا وتسكنُ به النفوسُ وتطمئنُ الأفئدة.

قال القرطبي:

> الأذانُ على قلة ألفاظه مشتملٌ على مسائلِ العقيدة؛ لأنه بدأ بالأكبرية وهي تتضمنُ وجودَ الله وكمالَه، ثم ثنَّى بالتوحيد ونفيَ الشريك، ثم بإثبات الرسالةِ لمحمدٍ ﷺ ، ثم دعا إلى الطاعةِ المخصوصةِ عقبَ الشهادة بالرسالة؛ لأنها لا تُعرفُ إلا من جهة الرسولِ ﷺ ثم دعاءٌ إلى الفلاح، وهو البقاءُ الدائم، وفيه الإشارةُ إلى المعاد، ثم أعاد توكيدًا [٢]

وفي ذات يوم قال عليه الصلاة والسلام لبلال: ﴿ ÖLþ5 ÜbžüqÚƒ Ö5 NJÐüdžZ ýdžZ Ïnƨh ÖLjÞpσ ‡Ljn!ƒ Ö5 Ïþð LJðh ÍÐöžLj Žþ ÐKzdžq ﴾

فيجيبُ بلالٌ رسولَ الله ﷺ ، قال: ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهّرْ طهوراً في ساعةٍ من ليلٍ أو نهار، إلا صليت بذلك الطهورِ ما كُتب لي أن أصلي [٣]

الله أكبر! أيُّ جائزةٍ أعظمُ من أن يَعرفَ إنسانٌ أنه من أهل الجنة وهو ما زال يعيشُ في هذه الدنيا؟!

وقال عنه عمر بن الخطاب: «أبو بكر سيدُنا، وأعتقَ بلالاً سيدَنا» [٤]

بلال بن رباح صبَرَ ساعةً، والنصرُ صبرُ ساعة، ويا لها من ساعة! عندما يشتد الكرب، ويعظُم الخطب، وتبلغُ القلوبُ الحناجر، فيكون الإيمانُ هو ثمنُ النصرِ، لا نصرَ بدونه.

يقول الشيخ الدكتور سفر الحوالي في شرح العقيدة الطحاوية: معنى قوله: ﴿ yöz 2T!f LJD DZfÄ ﴾:

«قال عليه الصلاة والسلام: ﴿ yöz 2T!f LJD DZfÄ ﴾ [٥]، كلُّ الناس يريدون النصر، والله سبحانه وتعالى جعل النصرَ منوطاً بالصبر، وإلا فلا نصر، وعادةً يكون النصرُ بدخولِ معركة، وهل نحن إلا في معركة؟! وكلُّ الناسِ حتى الذين لا يؤمنون بالآخرة يقولون: معركةُ الحياة .. ومعتركُ الحياة، وهذا حق؛ فهم في معركةٍ مع أنفسهم، ومع الناس والمال، ومع كل شيء؛ فالحياةُ هي معركةٌ فعلاً، لكن الذي سوف ينتصرُ هو المؤمن، وإذا أردنا أن ننتصرَ فعلينا بالصبر، وبالأخص من كان يدعو إلى الله، ويأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر: ﴿ **وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ** ﴾[٦]

وقد جعل الله سبحانه وتعالى للإمامة في الدين شرطين لا بد أن يتحققا، ولو اختلّ أحدُهما لاختل تحقُّقُ الإمامةِ في الدين، وهما: الصبر واليقين؛ يقول الله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾[٧]، فالذين حققوا ذلك من بني إسرائيل تحققت لهم الإمامةُ في الدين.»

فلا بد إذاً من الصبر: ﴿ yöz 2T!f LJD DZfÄ ﴾، ولقد قالت العرب: «بين النصر والهزيمة صبرُ ساعة»، وهذا عنترةُ بن شدادٍ الفارسُ الجاهلي المعروف لما سُئل: بم تغلب خصمك؟ قال: «ما بارزتُ أحداً إلا قلت: الآن أفِر، ثم قلت: أنتظرُ قليلاً فربما فَرَّ، فيفِرُّ، فأكونُ أنا الذي انتصرت».

وهكذا الإنسان يصبّرُ نفسه قليلاً حتى يأذنَ الله تعالى بالفرج، وتأتي الهزيمةُ من الطرف الآخر، والطرفُ الآخر يتمثلُ بالنفس والدنيا والشيطانِ والهوى، وعدوِّ القتال.

يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾[٨]، لقد كان التفاضل بين الناس في الجاهلية بالأنساب والأحساب، فجاء الإسلام وبين أن المقياس الحقيقي في التفاضل هو تقوى الله ﷻ ، لا فرق في الألوان، ولا الأجناس، ولا اللغات، ولا البلدان، إنما يُعرف المؤمن بلا إله إلا الله، وبمقدار عبوديته لله ﷻ.

كانت التقوى هي المقياس الذي رفع الله به بلالاً وشرفه، وصغّر من شأن الكافرين كأمثال أمية بن خلف وغيره ولو كانوا من أشرف القوم في الجاهلية.

كان ثبات بلال على الدين وصبره وتقواه من أسباب حفظ الله له ونصره على أعدائه، قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ [٩]

يقول ابن كثير رحمه الله:

> يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم, فلا حول ولا قوة لهم إلا به, وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن [١٠]

وفي غزوة بدر رأى بلال أمية بن خلف وكان في حمى عبد الرحمن بن عوف، فقال: أمية بن خلف، رأس الكفر، لا نجوت إن نجا فمنعه عبد الرحمن بن عوف فصرخ بلال بأعلى صوته: يا أنصار الله .. استعان بالمسلمين على عدو الله وعدوهم، فأحاطوا بأمية بن خلف حتى جعلوه مثل المسْكه، وهبروه بأسيافهم حتى فرغوا منه.

وبعد انتهاء المعركة انتفخت جثة أمية بن خلف في درعه فملأها، فأرادوا أن ينزعوا عنه الدرع فتزايل لحمه المتهرى، فأقروه فيه، ثم ألقوا عليه التراب والحجارة حتى غيبوه.

قُتل رأس الكفر بيد بلال، العبد الأسود الذي أذاقه ألوان العذاب ونكل به، كان الجزاء من جنس العمل مع اختلاف النية، كان نصراً متتابعاً لبلال رضي الله عنه ، الذي تحمل الشدائد والأذى إظهاراً للدين المتين وهانت عليه نفسه في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله، فرفعه الله في الدنيا ووعده بالجنة في الآخرة.

ومات بلال بن رباح في الشام كما أراد، مات مرابطاً في سبيل الله، ليلقى الله على خير عمل، مات بلال ﷺ بعد أن ضرب مثلاً في الثبات والصمود والصلابة في الوقوف إلى جانب العقيدة.

إن قصة بلال بن رباح من بين عشرات قصص النصر والتمكين لعباد الله المستضعفين من قبل أعدائهم، الموقنين بنصره وتمكينه لهم، هي قصة مرت، وتتتابع القصص.

**الهوامش:**

[١] الإسراء:٨١

[٢] فتح الباري ٢/ ٧٧

[٣] أخرجه البخاري (٨/ ٧١) ومسلم (٤/ ١٧٧٥) رقم (٢٢٦٦).

[٤] سير أعلام النبلاء ج١، ص٦٢-٦٣

[٥] رواية لحديث احفظ الله يحفظك عند أحمد (١/ ٣٠٧)، والحاكم (٣/ ٦٢٤)، من حديث ابن عباس

[٦] لقمان : ١٧

[٧] السجدة : ٢٤

[٨] الحجرات : ١٣

[٩] آل عمران : ١٢٠

[١٠] تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٢٩).

**المراجع:**


[١] سير أعلام النبلاء، للذهبي.

[٢] محاضرة سيرة وتاريخ/ المؤذن الأول، للشيخ عائض القرني.

[٣] شرح العقيدة الطحاوية، الشيخ الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي.

[٤] مقالات منوعة

# مجلة منتدى التوحيد

العدد الثالث

WWW.ELTWHED.COM

جميع الحقوق محفوظة لموقع منتدى التوحيد، لتواصلكم واقتراحاتكم زوروا منتدانا